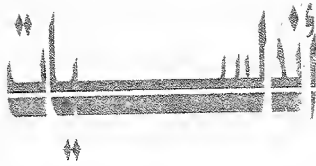


جامعة عيسى شمس

كلية التربية

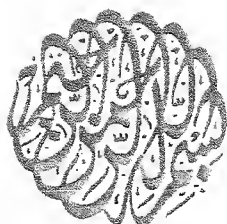
قسم التاريخ



د. / محمد عبد الحميد عيسى

استاذ التاريخ الاسلامي

والحضارة الاسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

(وطمع فأنا أجدني تنفع المؤمنين)

صدق الله العظيم

إهداء

إلى العالم الفقيه الطيب

عبد الملك بن حبيب

المتوفي ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م

أول مؤرخ حاول أن يكتب تاريخاً على أرض الأندلس

في ذكرى مرور ٥٠٠ سنة على سقوط الأندلس

(١٤٩٢ م - ١٩٩٢ م)

د. محمد عبد الحميد عيسى

مقدمة

الاندلسيات

صفحات من تاريخ المسلمين في الأندلس ، وشواهد من حضارتهم
مازالت باقية الى أيامنا هذه ، وستظل إلى ما شاء الله درساً لمن يريد أن
يتعلم ، وعظة لمن يريد أن يتعظ .

صفحات سبق أن كتبتها ، ونشرتها في مجلات عربية أو سبق أن
أعدتها للنشر .

أهدى ذلك إلى طلاب العلم ، الباحثين عن الحقيقة ، المحبين للتاريخ
عامة ، والأندلس خاصة .

والله ولي التوفيق

د . محمد عبد الحميد عيسى

استاذ التاريخ الاسلامى والحضارة

ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية - جامعة عين شمس

القاهرة ١٩٩٨ .

مكانة الأندلس العلمية في العالم الإسلامي

مكانة الأندلس العلمية في العالم الاسلامي

احتلت الأندلس بين دول العالم الاسلامي مكانة علمية عظيمة لا تدانيها فيها عاصمة أخرى وأصبحت مدينة قرطبة محط الرحال للعلماء، ولالأدباء، والشعراء والكتاب ولم تعد قرطبة هي دار العلم والتعليم في العالم الاسلامي فحسب، بل تعدى ذلك الى سيادة قرطبة العالمية، فلم تعد محط الرحلة للقادمين من بغداد والقاهرة ودمشق فقط بل هي كذلك مقصد محبي العلوم من فرنسا، وإنجلترا، وإيطاليا، والقسطنطينية، وغيرها.

لاشك أن البداية العلمية للأندلس جاءت من المشرق، حيث تركزت الجهود علي نقل علوم المشرق، والرحلة الي هناك لتلقي هذه العلوم من الأساتذة الشرقيين، وكانت القاهرة، ودمشق وبغداد، ومكة، والمدينة هي الوجهة التي يسعى اليها أبناء الأندلس لتلقي العلم، ثم يعودون بعد ذلك الي بلادهم، فيعملون علي نشر علمهم وإذاعة كتبهم، وإبداء أرائهم.

ولكن ذلك التأثير المباشر للمشرق قد بدأ يواجه منافسة قوية نابعة من أرض الأندلس ذاتها. حيث حرص التلميذ البسيط القادم من الأندلس علي أن يسرع في تعلمه، وأن يتخطي مرحلة العلم الي مرحلة الانتاج العلمي، وبدأ ذلك الانتاج يأخذ صورة مختلفة عما كان في المشرق. وهنا ظهر التنافس قويا، في تأليف الكتب وإبداء الآراء، وتبادل العلوم. وأصبح من السهل أن نري أن الرحلة في طلب العلم لم تعد في اتجاه واحد، بل يمكننا أن نري عددا من المشرقيين يفدون الي الأندلس للتعليم، وتلقي

العلم، وجاء بعضهم أساسا تدفعه رغبة التجارة فجلس يستزيد علما. وتطور طابع رحلة الأندلسيين الي الشرق، فلم يعد الغرض منه تلقي العلم فقط وإنما كان دافعه الأول الحج ذلك الغرض الديني، ثم لقاء العلماء، والتناظر معهم، ومناقشتهم فيقول المقرئ : وكان أهل الأندلس في غايه الاستحضار للمسائل العلمية علي البديهة، قال ابن مسدي : أُملي علينا ابن المناصف النحوي بدانية علي قول سيبويه، «هذا باب ما الكلم من العربية» عشرين كراسا بسط القول فيه علي مائة وثلاثين وجها.

وهذا وأشباهه يكفيك في تبحر أهل الأندلس في العلم، وربما سئل العالم منهم عن المسألة التي يحتاج في جوابها الي مطالعة ونظر، فلم يحتج الي ذلك، ويذكر من فكره ما لا يحتاج معه الي زيادة.

ولقد بلغ بهم حرصهم علي العلم مبلغا كبيرا حتي أصبح من المخل أن يسأل الواحد منهم عن مسألة ولا يستطيع لها جوابا، «ولقد سئل أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري المعروف بالأبيض عن لغة فعجز عنها بمحضر من خجل منه، وأقسم أن يقيد رجليه بقيد حديد، ولا ينزعه حتي يحفظ الغريب المصنف، فاتفق أن دخلت عليه أمه في تلك الحال فارتاعت فقال :

ربعت عجوز أن رأنتي لا بسا	خلق الحديد ومثل ذلك يروع
قالت جننت فقلت بل هي همة	هي عنصر العلياء والينبوع
سن الفردق سنة فتبعتها	اني لما سن الكرام تبسوع

ومن هذه الحكاية يمكن لنا أن نتبين أيضا الرغبة في التفوق علي
التأثير المشرقي فإذا كان الفردوق قد سن سنة وإذا كان قد ضرب مثلا في
علو النعمة، فيمكنك أيضا أن نري من بين رجال الأندلس من يحاول أن
يضرب مثلا أعظم وأكبر، ولذلك صار التنافس في طلب العلم غاية يسعي
اليها كل الناس، ويعتز بها من ينالها، وإذا كانت قد اختلفت أقدار الناس
عند سعيهم لطلب العلم فإنهم بعلمهم بعد ذلك قد تساوا، وتنافسوا، وسعوا
دائما الي ما هو أحسن، فلقد تناظر ابن حزم مع الباجي شارح الموطأ فقال
الباجي :

أنا أعظم منك همة في طلب العلم، لانك طلبته وأنت معان عليه،
فتسهر في مشكاة الذهب وطلبته وأنا أسهر في قنديل بئس السوق . فقال
ابن حزم هذا الكلام عليك لا لك : لانك انما طلبت العلم وأنت في هذه
الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حال ما تعلمه، وما ذكرته .
علم لا أرجو به الا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة .

ومن تلك الحادثة يمكن أن نستنتج الدوافع العلمية عند الأندلسيين،
فهي وان كانت بالنسبة للفقراء، السعي في سبيل الرزق، والرغبة في
المكانة العلمية والوصول الي مراكز الحكم، فانها بالنسبة للأغنياء السعي
ارضاء الله، والدار الآخرة وإزالة الجهل عن النفس، وعن سائر الجهال
واحياء الدين، وإبقاء أهل الإسلام فان بقاء الاسلام بالعلم، ولا يصح
الزهد، ولا التقوي مع الجهل .

وإذا كان طلاب الأندلس قد هرعوا الي المشرق ليتزودوا بالعلم،
فإنهم هناك قد حرصوا علي عدم اضاعة الفرصة، وإهدار الوقت، وانما

استغلوا كل دقيقة ممكنة في العلم والتحصيل حتي يمكنهم العودة سريعا الي بلادهم، وهذا هو عالم الأندلس الفذ «يحيي بن يحيى اللبثي» الذي نقل الي الأندلس علم «مالك» وروي عنه الموطأ وعندما رحل الي مالِك لازمه : فيبينما هو عنده في مجلسه مع جماعة من أصحابه . اذ قال قائل : قد حضر الفيل ، فخرج أصحاب مالِك كلهم ولم يخرج يحيي . فقال له مالِك : مالِك لا تخرج وليس الفيل في بلادك ؟ فقال : انما جئت من الأندلس لانظر اليك ، وأتعلم من هديك وعلمك ، ولم أكن لانظر الفيل ، فأعجب به الفقيه وقال : هذا عاقل الأندلس .

وهناك مجال آخر اثبت فيه تلامذة الأندلس نجابتهم وذكاءهم ، واستعدادهم الفطري للتفوق والتقدم ، وهو مجال قول الشعر حتي اعترف بهم شعراء المشرق كأساتذة .

فقد لقي أبو الوليد بن عمال الأندلس أبا الطيب المتنبي في مسجد عمرو بن العاص وجري الحديث بينهما قال المتنبي : الا أنشدني لمليح الأندلس - يعني ابن عبد ربه - فأنشد له بعض الأبيات ، فلما اكمل الأندلسي انشاده ، استعاده المتنبي ، ثم صفق بيده وقال : يا ابن عبد ربه لقد يأتيك العراق حيويا .

ومن السهل أن نلمح رغبة الأندلس في التخلص من السيطرة المشرقية ، وسعيها الي تكوين شخصيتها العلمية ، واهتمام أمرائها بتحقيق ذلك فبعثوا رسلا أذكيا ، أكفأ الي دار السلام مزودين بمبالغ ضخمة من المال ، وأوصوهم أن يسلكوا الممكن ، وغير الممكن من الطرق للوصول علي أهم ما تتباهي به بغداد من دور العلم وجواهر المعرفة ، فذهب أولئك

الرسول، واستعملوا الروية والأناة، وبذلوا المال بسخاء. فنجحوا في رسالتهم، وقاموا بمهمتهم خير قيام، وعادوا من دار الحكمة وقد نقلوا أكثر ما ترجم من المؤلفات في بغداد، وسلموها الي الخلفاء فحفظوها بين صورههم، ونحورهم، ضنا بها، وحرصا عليها، وأمروا بنسخ صور كثيرة منها، فذاعت في ربوع الأندلس، ثم تخطت البحر المتوسط الي شمال افريقية.

ومن السهل علينا أن نلمح تشجيع الحكام للأندلسيين أنفسهم فيما حدثت عند وصول أبي علي الغالي من بغداد الي قرطبة والذي وقد على الأندلس في أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن فأمر ابنه الحكم، وكان يتصرف عن أمر أبيه كالوزير، ابن رماحس، أن يجيء مع أبي علي الي قرطبة ويتلقاه في وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكريما لأبي علي الغالي، ففعل، وسار معه الي قرطبة في موكب نبيل، فكانوا يتذكرون الأدب في طريقهم، ويتناشدون الأشعار الي أن يتحاوروا يوما وهم سائرون حول أدب عبد الملك بن مروان ومساءلته جلسائه عن أفضل المناديل، وأنشاده بيت عبده بن الطبيب.

نحن قمنا الي جرد مسومة أعرافهن لأيدنا مناديل

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا علي، فأنشد الكلمة في البيت «أعرافها لأيدنا مناديل» فأنكرها ابن رفاعة الألبيري، وكان من أهل الأدب والمعرفة، وفي خلقه حرج وزعارة، فاستعاد أبا علي تثبتا مرتين في كليهما قال «أعرافها» فلو ي ابن رفاعة عنانه منصرفا وقال أ مع هذا يوفد علي أمير المؤمنين، ويتجشم الرحلة لتعظيمه، وهو لا يقيم وزن بيت

مشهور بين الناس لا تغلط فيه الصبيان ؟، والله لا أتبعه خطوة، وانصرف
عن الجماعة، وندبه أميره ابن رماحس الا يفعل فلم يجد فيه حيلة، وكتب
الي الحكم يعرفه؛ ويصف له ما جري لابن رفاعه، ويشكوه فأجابته الحكم
علي ظهر كتاب. «الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطيء
وأفد أهل العراق إلينا وابن رفاعه أولي بالرضا عنه من السخط فدعه،
وشأنه وأقدم بالرجل غير منتقص من تكرمه فسوف يعليه الاختبار ان
شاء الله تعالى»

من هذا تتبين الرغبة الحقيقية عند أهل الأندلس بوجود علم خاص
بهم، والفخر بعلمائهم. نعم كان الاتجاه الي المشرق لأخذ أفضل ما
عنده، ولكنه لم يكن تلقيا لما عند المشرق فقط، بل كان استيعابا له، ثم
تعليقا عليه، وبعد ذلك انتاجا خالصا خاصا بهم.

نعم لقد تعرض أبو علي القالي للانتقاد، وكانت هذا سهلا بالنسبة
لما حدث لصاعد الطبقي حين جاء بعد ذلك بمدة طويلة. لقد عقدت له
الاختبارات العديدة في اللغة، والشعر والأدب، وأخبار الدول، وتعرض
للقند الشديد في مجالس المنصور، وأغرق كتابه الفصوص في الماء واتيم
بالكذب عدة مرات.

قال ابن بسام : ولما دخل صاعد قرطبة أيام المنصور ابن أبي عامر
- عزم المنصور علي أن يقتفي به اثار أبي علي البغدادي الوافد علي بني
أمية، فما وجد عنده ما يرتضيه، وأعرض عنه أهل العلم وقدحوا في
علمه وعقله، ودينه، ولم يأخذوا عنه شيئا لقلة الثقة فيه، وكان قد آلف
كتابا سماه «الفصوص» فدحضوه، ورفضوه، ونبدوه في النهر»

نعم لم يكن الأمر علم صاعد، قوته، أو ضعفه، فمما لا شك فيه أن صاعداً واحداً من علماء عصره المشهورين، وقد قام بالتدريس في قرطبة، لجمهرة من الطلاب والعلماء، وله مؤلفات عدة، ولكنها شخصية الأندلس التي نمت، وقرية، وازدهرت، وأصبحت تنظر للغريب نظرة فيها استنكار واستعلاء.

يقول المقرئ : ومن غريب ما جرى لصاعد أن المنصور جلس يوماً، وعنده أعيان مملكته ودولته من أهل العلم، كالزبيدي، والعاصي، وابن العريف. فقال لهم المنصور : هذا الراحل الوافد علينا يزعم أنه متقدم في هذه العلوم، وأحب أن يمتحن، فوجه إليه، فلما مثل بين يديه والمجلس قد احتفل أخجل، فرفع المنصور محله وأقبل عليه، وسأله عن أبي سعيد السيرافي، فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب «سيبويه» فبادره العاصي بالسؤال عن مسألة من الكتاب، فلم يحضره جوابها واعتذر بأن النحو ليس جل صناعته، فقال له الزبيدي «صاحبكم ممزق» (أي كاذب، ومموه) فقال له صاعد أخال الشيخ صناعته الأبنية، قال الزبيدي : أجل : قال صاعد. ويضاعتي أنا حفظ الأشعار، ورواية الأخبار، وفك المعتمى، وعلم الموسيقى ..

ولقد أعطي الحكام للعلماء كل الاحترام والتكريم، حتي أصبحوا كأنهم الحكام الحقيقيون، مما جعل الناس يسارعون الي التعليم، ويعملون علي احترام المعلمين بصورة لا تداينها في عظمتها صورة أخرى.

من رسالة للشقندي في فضل الأندلس يقول : ولقد أخبرت أن الحكم الربضي أراد تقديم شخص من الفقهاء يختص به للشهادة. فأخذ في ذلك

مع يحيى بن يحيى، وعبد الملك، وغيرهما من اعلام العلماء فقالوا له :
هو أهل، ولكنه شديد الفقر؛ ومن يكون هذه حاله لا تأمنه علي حقوق
المسلمين، ولا سيما وأنت تريد انتفاعه وظهوره في الدخول في الموارث،
والوصايا وأشباه ذلك . فسكت ولم يرد منازعتهم، وبقي مهموما من كونهم
لم يقبلوا قوله . فنظر اليه ولده بعد الرحمن الذي ولي الملك بعده وعلي
وجهه أثر ذلك فقال : ما بالك يا مولاي ؟ فقال ألا تري هؤلاء الذين
نقدمهم، وتنوّه عند الناس بمكانتهم، حتي إذا كلفناهم ما ليس عليهم فيه
شطط بل ما لا يعيبهم، ولا مما هو يرزؤهم صدونا عنه، وغلقوا أبواب
الشفاعة، وذكر له ما كان منهم . فقال : يا مولاي أنت أولي الناس
بالانصاف، أن هؤلاء ما قدمتهم أنت ولا نوّهت بهم، وإنما قدمهم ونوّه
بهم علمهم، أو كنت تأخذ قوما جهالا فتضعهم في مواضعهم ؟ فقال : لا
قال : فانصفهم فيما تعبوا فيه من العلم لينالوا به لذة الدنيا وراحة الآخرة .
قال : صدقت ثم قال - عبد الرحمن - وأما كونهم لم يقبلوا هذا الرجل
لشدة فقره، فالعلة في ذلك تنحسم بما يبقي لك في الصالحات ذكرا . قال :
وما هو ؟ قال : تعطيه من مالك قدر ما يلحق به من الغني ما يؤهله لتلك
المنزلة، ويزيل عنك خجل ردهم لك، وتكون هذه مكرمة ما سبقك اليها
أحد . فتهلل وجه الحكم وقال : الي، الي انها والله لشئنة عبسمية ثم
استدعى عبد الملك بن حبيب وسأله عن قدر ما يؤهله لتلك المرتبة من
الغنى فذكر له عددا فأمر له به في الحين . فاذا كان ذلك كذلك من الحكم
الريضي، وهو المعروف بقسوته، واعتزازه بنفسه، وكبريائه فإنه من
الممكن لنا أن نتصور المكانة التي احتلها العلماء والفقهاء في الدولة
الأندلسية .

أحس الناس في الأندلس بقيمة العلم، فأقبلوا علي التعليم بكل وجدانهم ومشاعرهم، لا يبالون بالمصاعب، والمقاعب، ولا يهتمون بما ينفقون، ولكنهم فقط يتعلمون حتي «يرى المستشرق الهولندي دوزي، وقد وقف حياته علي دراسة تاريخ الأندلس أن الامية كانت نادرة، والثقافة شائعة، ويقص علينا ابن بشكوال أنه كان في سوق قرطبة باعة عنب وتين يستطيع الواحد منهم أن يقرأ من الذاكرة أمامك كتاب «معاني القرآن» لابي جعفر النحاس».

والواقع أن رغبة أهل الأندلس في العلم قد فاقت كل الحدود، وكانوا أحرص الناس علي ذلك، هذا وسوف أبين في الفصول القادمة أي العلوم قد اهتموا بها، وتأثير تلك العلوم في المجال الفكري والعلمي، والسياسي للأندلس.

ولقد احتفظت لنا كتب التاريخ بالكثير من الرسائل الخاصة بالحديث عن فضل أهل الأندلس وذكر أخبار علمائها، وقضااتها، وفقهائها، وأطبائها، ومن الأمثلة علي ذلك تلك الرسالة الكبيرة التي كتبها ابن حزم القرطبي والتي احتفظ لنا «المقري» بنصها في كتابه «نفع الطيب» ردا علي رسالة بعث بها أبو الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب التميمي القيرواني الي أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم «يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم، ومأثر فضلهم، وسير ملوكهم» فانبيري ابن حزم يذكر علماء الأندلس، ويعدد أفضانهم ومؤلفاتهم في حماس بالغ لوطنه.

وقال آسين بلاثيوس المستشرق الأسباني الكبير عن هذه الرسالة أنها تضم ثبثا بما ألف الأندلسيون في صفوف الأداب والعلوم، وهي في فصول كل منها يدور حول صنف من العلوم والأداب.

وبالرجوع الي نص رسالة ابن حزم يمكنك أن تتبين منها بوضوح ما سبق أن أشرت من الرغبة القوية الموجودة عند الأندلسيين في الاستقلال الفكري، وتكوين الشخصية الذاتية لتفكير الأندلس، بل والتباهي علي الشرقيين بالانتاج العلمي في بلادهم فيقول ابن حزم، وعلي ذلك فقد جمع ما ظنه الطان غير مجموع، وألفت عندنا تأليف في غاية الحسن، لها حظ السبق في بعضها : منها كتاب «الهداية» لعيسي بن دينار، وهي أرفع كتب جمعت في معناها علي مذهب مالك وأبي المقاسم، وأجمعها للمعاني الفقهية علي المذهب» ويقول ابن حزم عن كتاب بقي بن مخلد في تفسير القرآن «وفي تفسير القرآن، كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد فهو الكتاب الذي أقطع قطعا لا استثنى فيه أنه لم يؤلف في الاسلام تفسير مثله، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري، ولا غيره».

ويذهب ابن حزم لابعد من هذا حيث يقرر أن قواعد ابن مخلد صارت أسسا للإسلام وأنه أصبح صاحب مذهب خاص لا يقلد فيه أحدا «صارت تأليف هذا الامام الفاضل قواعد للإسلام، لا نظير لها، وكان متميزا لا يقلد أحدا، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل رضي الله تعالي عنه».

ويقول كذلك عن ابن عبد البر «وهو الآن يعد في الحياة لم يبلغ سن الشيخوخة بعد» وهو لا أعلم في الكلام علي فقه الحديث مثله أصلا فكيف أحسن منه.

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال أن بعض المؤلفين الأندلسيين حينما ذهبوا إلى المشرق قد قاموا بتأليف كتب هناك لأهل المشرق لتوضح لهم مكانة أهل الأندلس في العلم، ومن هؤلاء محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي صاحب كتاب «جذرة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس وأسماء رواة الحديث». وأهل الفقه، والأدب، وذوي النباهة والشعر «ومن المقدمة يمكننا أن نلمح الرغبة الملحة في الافتخار بقطره، والاعتزاز به، يقول في ذلك» أما بعد فإن بعض من التزم واجب شكره علي جميل بره، لما وصلت إلى بغداد، وحصلت من إفادته علي أفضل استفاد، نبهني علي أن أجمع ما يحضرني من أسماء رواة الحديث بالأندلس، وأهل الفقه والأدب، وذوي النباهة والشعر، ومن له ذكر منهم، أو ممن دخل إليهم، أو خرج عنهم في معني من معاني العلم والفصل أو الرئاسة والحرب.

فأعلمته ببعدي عن مكان هذا المطلوب، وقلة ما صحبني من الغرض المرغوب، وأني إن رمت علي قلة ما عندي، وتعاطيته علي انقطاع موادي وبعدي، لم أخل من أحد وجهين : أما أن أبخس القوم حظهم وانقصهم، فأتعرض للائمتهم فيما أوردت، وأقف موقف الاعتذار فيما له قصدت وإما أن أوهم من رأي قلة جمعي، ونهاية ما في وسعي أنه ليس من أهل الفضل في تلك البلاد إلا نزر من الأعداد، فأكون بعد احتفالي لهم قد قصرت بهم، وعند اجتهادي في ذكرهم قد أخلت بفخرهم.

وهذا أبو بكر محمد بن داود يكتب كتاب الزهرة من مائة باب في كل باب مائة بيت، فيأتي أحمد بن محمد بن فرج الجباني فيؤلف كتاب الحديث في مائتي باب في كل باب مائتي بيت ولا يفوت الحميدي أن

يعلق ذلك «أحمد بن محمد بن فرج، وقد ينسب الي جده فيقال احمد بن فرج وكذلك أخوه، وهو وأفر الادب كثير الشعر، معدود في العلماء وفي الشعراء وله الكتاب المعروف بكتاب الحدايق، الفه للحكم المستنصر، وعارض فيه كتاب الزهرة لابن داود بن الاصبهاني، الا ان الاصبهاني ذكر مائة باب في كل باب مائة بيت، وابو عمر اورد مايتي باب، في كل باب مايتي بيت ليس منها باب تكرر اسمه لابي بكر، ولم يورد فيه لغير الاندلس شيئا، وقال ابن حزم : واحسن الاختيار ما شاء واجاد فبلغ الغاية .

واذا ما كتب كتاب في تاريخ بغداد، وأهميتها، وعظماء رجالها، يسارع الأندلسيون الي كتابه مثله في تاريخ قرطبة، وأهميتها، وعظمتها، فهذا احمد بن محمد بن موسى الرازي له في أخبار ملوك الأندلس، وخدمتهم، نكباتهم، وغزواتهم كتاب كبير، وألف في صفة قرطبة وخططها، ومنازل العظماء بها كتابا علي نحو ما بدا به أحمد بن طاهر في أخبار بغداد وذكره صاحبه المنصور بها .

فاذا كانت هذه رغبة أهل الأندلس في تكوين شخصية مستقلة عن الشمرق فليس معني ذلك هو التخلي عن الثقافة المشرقية، ولكنني أريد أن أقول، أن الأندلس قد فتحت ذراعها لأقصى حد ممكن لاستقبال المؤثرات الثقافية المشرقية وتتبع خطوات الشرق في كل شيء، في نفس الوقت حاولت أن تهضم هذه الحضارة ثم تفرزها حضارة جديدة تحمل الطابع الأندلسي .

ولقد نجح الأندلسيون في ذلك الي حد بعيد، فنمت حضارتهم، وتطورت علومهم وأقبلوا جميعا علي العلم، وعلي التعليم، حتى استطاعوا أن يتركوا لنا تراثا كبيرا يقول المقرئ «وأما حال أهل الاندلس

في فنون العلم، فتحقيق الانصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس علي التمييز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجتهد أن يتميز بصنعة، ويرياً بنفسه أن يري فارغا عالية علي الناس، لان هذا عندهم في نهاية القبح، والعالم عندهم معظم من الخاصة ومن العامة، يشار اليه، ويحال عليه، وينبه الي قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك.

واذا كان لي أن اكتب ملاحظة ختامية لهذا الفصل القصير عن رغبة أهل الاندلس في احتلال مكانة علمية عالية، فلقد ضرب الطلبة الاندلسيون الراحلون الي المشرق أكبر المثل في الثقافة ومساعدة بعضهم البعض، من أجل التفوق، والدراسة.

لقد سيطرت عليهم روح العلم بمعناه الكبير، روح الزمالة بكل قيمها الحلوة، فلم نسمع عنهم بمثل ما يحدث بين الزملاء، من غيره، وتحاسد، بل نجدهم منذ البداية يسعى بعضهم لمساعدة البعض الآخر بكل ما يستطيع حتي اننا نرى داود بن عيسى - من اهل قرطبه - حين «رحل الي المشرق فاجتمع مع بقي بن مخلد، وكان بقي لآمال له، وكان داود واسع المال، فسأله بقي أن يتيح له من ماله ما يشتري به الكتب ويجمع الدواوين، ويكون «سماعهما واحدا، وقال له : أرجو أن ينفعك الله بذلك، فأجابه داود الي ذلك، فكان سبب استكثار «بقي» من الرواية والجمع، ولما انصرف الي الاندلس كتب «بقي» الكتب لنفسه.

وليس عندي ما أضيفه أكثر مما قيل في حق «عبد الملك بن حبيب مؤرخ الاندلس الأول، والتي تؤكد «علي أن جرأة الفقيه الإلبيري في

أقدمه علي كتابة تاريخه الكبير تدعو الي الاعجاب بذلك العالم المتوسط الثقافة الذي اراد أن يؤكد قوميه الاندلسية منذ ذلك الوقت المبكر في ميدان العمل الثقافي والفكري» .

ولمن يجد اهتماما أكثر بهذا الموضوع أن يطلع علي ما كتبه العالم المصري الكبير :

محمود علي مكي في رسالته للدكتوراة تحت عنوان مقدمة «رحلات الاندلسيين والمشرقيين» والذي أوضح بطريقة منظمة السمات الخاصة بالاندلس داخل المجتمع الاسلامي، مثلها في ذلك مثل سائر الاقطار الاسلامية الاخرى .

هذا وقد عقد الدكتور : مكي، فصلا مطولا في نهاية كتابه للحديث عن «تكون نمو الشخصية لاسبانيا الاسلامية في عصر الخلافة» .

واختتم هذا الفصل ايضا بشهادتين لعالمين من علماء العصر الحديث حول هذه الفترة .

يقول أحدهما :

«هذا الاندلس؛ مركز، ومنازل، لقد اشرق ذات يوم، وكان اشراقه

مطمح الاطماع، ومحط الابصار النهضة الجامعة الي العلم في

كل فرع من فروع المعرفة في تلك الفترة المزدهرة والمقدسة،

يقول الآخر :

« أن الكميات الهائلة من المترجمات العربية الي اللاتينية والتي تمت خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، قد اعيد صياغتها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مما اعطي صورة طيبة للعلماء ورجال الدراسات الانسانية في اوروبا لكي يرسموا صورة لما كانت عليه العلوم العربية علي ارض شبيبته الجزيرة ولقد نسب هؤلاء العلماء كل ذلك الازدهار الرائع للحضارة الاسلامية الي الشخصية الاندلسية حتي انهم ذكروا من ذلك علماء من المشرق من الذين لم يقدر لهم ان يطأوا التراب الاندلسي - مثل ابن سينا ولذلك لم يكن من الغريب ان لا يتسردد ولو للحظة واحدة مؤرخ العلوم الذائع الصيت «سارتون» في اعتبار اسبانيا الاسلامية اعظم مركز ثقافي وحضاري في العالم في العصور الوسطى،

التربية الإسلامية في الأدلس

مقدمة : توجد صلة وثيقة بين النظام التربوي بكافة عناصره والمستوي الاقتصادي والفكري والنظام السياسي في أي بلد من بلدان العالم، ولذلك فانه من الطبيعي ونحن نبحث عن سر التقدم العلمي ومن ثم الرخاء الاقتصادي، والتناغم الاجتماعي لأمة من الأمم نجد لزما علينا ان نبحث في نظامها التربوي، والاسلوب المتبع في اعداد ابنائها للمستقبل .

ولقد بلغت الأندلس شأرا بعيدا في مجال التقدم الفكري والحضاري وقدمت للحضارة الانسانية نماذج عظيمة من المفكرين والأدباء والفلاسفة والعلماء والفقهاء وغيرهم من أساطين العلم والفن، وكان لنظامها التعليمي وأسلوب التربية في هذه البلاد الدور الأكبر في هذا الرقي الاجتماعي، وهذا التطور الاقتصادي، وهذا الازدهار العلمي الهائل، مما جعله جديرا بالدراسة والبحث واستجلاء كل مناحيه .

الإطار التاريخي للبحث :

استقر المسلمون في الأندلس منذ دخولهم هذه البلاد عام ٧١١م واستمروا فيها الى ان تم الاستيلاء علي غرناطة، اخر مملكة اسلامية علي أرض الأندلس وذلك في يناير عام ١٤٩٢م .

ويعتمد المؤرخون الي تقسيم هذه الحقبة التاريخية الطويلة الي فترات زمنية محددة، لها معالمها الواضحة، ورغم صعوبة الفصل بين فترات

التاريخ، إلا ان الغالبية العظمي من مؤرخي الأندلس، العرب وغير العرب، يتبعون ذلك التقسيم المجازي، وهو علي النحو التالي :

أولاً : عصر الولاة، وهي الفترة التي تلت الفتح الاسلامي للأندلس واستمرت من حوالي عام ٩٥هـ الي عام ١٣٨هـ وتميزت هذه الفترة بالباكرة بوضع الأسس الأولى لنشر اللغة العربية والاسلام في الأندلس، كما أنها حاولت نشر الاسلام خلف جبال البرت، علاوة علي كونها الفترة التي نبتت فيه البذور الأولى للحضارة الأندلسية، ومنها انطلقت حركة البناء والتطوير والتكوين .

ثانياً : عصر الامارة : وتبدأ هذه الفترة بتولي الامير عبد الرحمن الداخل عرش الأندلس في عام ١٣٨هـ، وتمتد الي عام ٣١٦هـ حين أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة علي الاندلس وتميزت هذه الفترة بالتطور الحضاري السريع وبروز شخصيات اندلسية كبيرة في مجالات فكرية شتى من امثال الفقيه يحيي بن يحيي الليثي، وبقي بن مخلد والعالم عباس بن فرناس، والمفكر محمد بن عبد الله بن مسرة والمغني ابو الحسن علي بن نافع المعروف بزرياب والسفير الحكم الغزال .

ثالثاً : عصر الخلافة : عصر الخلافة : وهو العصر الذهبي للمسلمين في الاندلس، وقد حكم خلاله ثلاثة من الشخصيات القوية العظمى، الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم ابنه الحكم الثاني، ثم الحاجب المنصور بن ابي عامر، ويمتد هذا العصر طيلة القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

لقد نجح حكام الأندلس أبان هذه الفترة في توحيد الدولة الأندلسية وتدعيم سلطة الحكومة المركزية في قرطبة، ولم يكن نجاحهم في المجال السياسي فحسب، بل كان النجاح الأكبر في المجالات الاقتصادية حتي زاد دخل الدولة زيادة كبيرة، وأصبح ثلث هذا الدخل يكفي للمصاريف العامة، ويدخر الثلث لمواجهة متطلبات المستقبل، وفي المجالات العمرانية التي وجه إليها ثلث دخل الدولة تماما، وتمثل الاهتمام العمراني في بناء المساجد والقصور وخاصة مسجد قرطبة الجامع ومدينة الزهراء حتي غدت مدينة قرطبة «أم القري، وقرارة أولي الفضل والتقى ووطن أولي العلم والنهي» .

أما أهم ما ارتقت إليه الأندلس علي عصر الخلافة فقد كان في المجال الفكري والأدبي، حيث قام عبد الرحمن الناصر، وربما للمرة الأولي بتكليف ابنه الحكم الثاني للقيام بمهمة رعاية العلم والعلماء في مملكته وقام الحكم بأعمال عظيمة حتي غدت مدينة قرطبة عروس الغرب كما كانت بغداد عروس الشرق، وقال فيها الشاعر ابن شخيص :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة

منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة

والعلم أفضل شيء وهو رابعها

ومما لا شك فيه ان الاستقرار السياسي، وما يتبعه من نمو اقتصادي، وازدهار فكري يولد ايضا التسامح الفكري والعقائدي بين طوائف المجتمع، ويقضي علي روح التعصب والكراهية ويدفع بالجميع الي التعاون والعمل من أجل الرقي الانساني، والتطور الحضاري، ولهذا برز في هذا العصر علماء كبار من المسلمين والمسيحيين واليهود، أدوا دورهم العظيم في رقي الحضارة الأندلسية .

واستمرت فترات التاريخ الأندلسي بعد ذلك لتشمل فترة ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين الي آخر حكم المسلمين في الأندلس مملكة غرناطة .

المرحلة التعليمية الأولى :

بدا الاهتمام بتعليم الأطفال في الأندلس بعد السنوات الأولى من الفتح الاسلامي، وهناك نصوص تاريخية تؤكد قيام مكاتب تعليم الأطفال في الأندلس في حدود سنة ١٢٠ هـ / ٧٣٨ م ثم زاد انتشارت هذه المكاتب باستمرار علي عهد بني امية في الأندلس وقد قام الحكم المستنصر بالله ببناء سبعة وعشرين مكتبا في مدينة قرطبة وحدها لتعليم اولاد الفقراء مجاناً، وحبس عليها حوانيت السراجين للانفاق علي المعلمين من دخلها ولقد وجدت هذه المكاتب في كافة الأحياء بالمدن والقري، وتدل كثرة أسماء المعلمين الواردة في كتب التراجم علي الانتشار الواسع لهذه المكاتب في كافة انحاء الأندلس .

ولقد استخدمت المساجد في احيان كثيرة كمكان لتعليم الأطفال وأقيمت المكاتب في جنباتها او في فنائها الخارجي، وعلي الرغم من

معارضة الفقهاء لاتخاذ المساجد مكانا لتعليم الأطفال الا ان اهل الاندلس لم يلتزموا بذلك التزاما حقيقيا، ولعل السبب في استخدام المساجد كمكان لتعليم الاطفال يرجع الي ان كثير من خدمة المساجد كانوا يحترقون هذه المهنة مما جعل من السهل عليهم ممارسة العملين في وقت واحد.

كما وجدت المكاتب في المنازل أو في المحلات أو في أي مكان يصلح لكي يقوم المعلم فيه بتعليم الأطفال.

ويبدأ الأطفال في الذهاب الي هذه المكاتب في سن السادسة أو السابعة، ويظلون يتعلمون بها الي سن الثانية عشرة أو الثالثة عشر تقريبا.

وكانت المهمة الأساسية لهذه المؤسسة التعليمية الأولى تتركز في تعليم الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، الذي كان تعليمه وحفظه هو الهدف السائد في هذه المرحلة في كافة أنحاء العالم الاسلامي حيث يرى ابن خلدون أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعارات الدين اخذ به أهل الأمة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم.

لكن أهل الأندلس تميزوا عن باقي أنحاء العالم الاسلامي بانهم قد اهتموا بأن يخلطوا في تعليمهم القرآن بعض المواد الأخرى مثل رواية الشعر، وبعض العربية واعطوا اهتماما خاصا بتعليم القراءة والكتابة وتحسين الخط حتي اصبح خطهم مميزا، علاوة علي تميزهم في مجالات اللغة العربية والأدب علي ما يعترف بذلك ابن خلدون.

كان الأطفال يذهبون الي المكتب في الصباح الباكر، ويظلون هناك الي أن ينتصف النهار، ويعودون الي المنزل للغذاء والراحة ثم يعودون الي

المكتب، فترة ثانية من وسط النهار حتي بعد العصر بقليل حيث ينتهي اليوم الدراسي. وأيام التعليم خمسة أيام : السبت الأحد والأثنين والثلاثاء والأربعاء وصباحة الخميس فقط «وكان للأطفال نصف يوم الخميس وطول يوم الجمعة عطلة للراحة، بالإضافة الي أيام عيد الفطر الثلاثة وعيد الاضحى الاربعة وبعض أيام المناسبات».

ويتلخص التعليم في هذه الفترة في قيام المعلم بقراءة آية من الآيات ثم يقوم الأطفال بتدريدها حتي يحفظونها، ثم ينتقلون الي آية أخرى وهكذا، وفي نفس الوقت يبدأ الأطفال في تعليم القراءة والكتابة، ولذلك كان علي الأطفال أن يحملوا معهم ألواحهم ومحايرهم، ولقد كانت تلك الألواح تصنع من الحجر أو الخشب، وكان من السهل محوها بالماء أو بقطعة من القماش.

علي الرغم مما ورد في كثير من كتب التراث الاسلامي عن سوء حالة معلمي الكتاب في بعض انحاء العالم الاسلامي الا اننا نجد أن معلمي الأندلس قد تمتعوا بمكانة اجتماعية عالية ومن بينهم معلمو الكتاب، ولقد كان من مظاهر تقديرهم أن لقب «معلم كتاب» قد تصدر ترجماتهم وبيان فضائلهم في كتب التراجم الأندلسية. علاوة علي ذلك فإن المستوي الثقافي لمعلمي الأندلس كان مرتفعا نسبيا، ويفسر ذلك كثرة الاشارات الواردة عنهم في المؤلفات الأندلسية بل ان بعضهم كان يحضر مجلس الخليفة عبد الرحمن الناصر ويتلقي جوائز.

ولقد استقر الرأي في الاندلس منذ البداية علي دفع أجرة للمعلمين وهناك من الوثائق ما يؤكد قبول الأجر علي التعليم في الأندلس منذ عصر

الولاية (٧١٤ - ٧٥٦م) وان وجد بعض المعلمين ممن كانوا لا يتقاضون اجرا من الصبيان، وكانوا يعتمدون علي منح الحكام أو رواتبهم التي حددتها لهم الدولة.

اما بالنسبة للبنات فلم تكن تذهب الي المكتب وانما كانت تتعلم في المنزل حيث تولي تعليمها اما أهلها أو معلمات كن يستأجرن لتعليم البنات، وتشير كتب التراجم الأندلسية الي عدد من النساء الأندلسيات كن يقمن بالتعليم منهن ابنة حزم المعلم التي كانت تؤدب مع والدها واخيها في دار واحدة.

والخلاصة التي يمكن ان نستنتجها من نظام التعليم الأولي في الأندلس، ان الاطفال اذا ما انتهوا من دراستهم الأولي فانهم يتمتعون بميزتين، الأولي المعرفة السليمة بدينهم والمعرفة السليمة بلغتهم، وكان هذا هو الاساس الذي بني عليه الأندلسيون تعليمهم بعد ذلك.

المرحلة التعليمية الثانية :

تبدأ هذه المرحلة بعد إنتهاء الأطفال من دراستهم في المكتب، وتتميز بأن مكانها الاساسي كان في المسجد حيث يجلس العلماء والمؤدبون للتدريس ومن ثم اصبح المسجد اهم مؤسسة تعليمية في الأندلس على ما كان عليه الحال في كافة انحاء العالم الاسلامي.

انتشرت المساجد في الأندلس انتشارا واسعا حيث تنافس الخلفاء والأمراء والعلماء والاثرياء في بناء المساجد حتي وصل القول بأن عدد المساجد في قرطبة وحدها قد وصل الي ١٣٨٧٠ مسجد. مما يعني انتشار

أماكن التعليم في الأندلس إنتشارا واسعا جداً.
وبالإضافة الي المساجد هناك المنازل، والقصور والمكتبات،
والرباطات وكلها اماكن ساهمت في نشر التعليم في الأندلس.

المنهج التعليمي في المرحلة الثانية :

كان المنهج التعليمي الذي يتلقاه الشباب الأندلسي متمسكاً بالمرونة والاتساع، فهو وإن كانت العلوم الدينية هي الأساس الأول الذي اهتم به الأندلسيون إلا أن الفرصة كانت متاحة لتلقي علوم أخرى غير العلوم الدينية فكان هناك كم واسع من المعارف يمكن للطلاب أن يقبلوا عليها ويتعلمونها، ودراسة كتب التراجم الأندلسية تبين لنا أن ما كان ممكناً أن يقبل الطلاب علي تعلمه كان كثيراً الي درجة يمكن أن نقول بها أنها كانت تغطي كل جوانب الثقافة المعروفة في ذلك الوقت، وإذا كان الطفل في المرحلة الأولى قد وجد نفسه مقيداً بمنهج معين يتمثل في حفظ القرآن وبعض اشعار العرب، فإنه في المرحلة التعليمية الثانية قد وجد الفرصة ليكون ثقافته ومعارفه في المجالات التي توافق ميوله وقدراته العقلية، وإذا كان الطفل قد وجد نفسه في المرحلة الأولى ملتزماً بالمكتب يحدو اليه يومياً مرتبطاً بساعات حضور وانصراف، فإنه في هذه المرحلة الثانية قد تخلص من هذه القيود، ووجد امامه حلقات المعلمين في المساجد وفي غيرها يختار من بينها الأستاذ الذي يميل اليه والمادة التي يهواها، والوقت الذي يناسبه، ويمكن لنا أن نجتمع العلوم التي كان يقبل عليها الطلاب في المجموعات التالية :

١ - العلوم الدينية وتشتمل علي مواصلة دراسة القرآن والحديث، وما نجم عنهما من فروع كثيرة متشعبة مثل التفسير، والقراءات، والفقه وعلم الحديث، ولقد تميزت بلاد الأندلس باهتمامها بالعلوم الدينية وخاصة في القراءات القرآنية والتفسير، وظهر في هذا المجال علماء أندلسيون كبار بلغت شهرتهم المدن الإسلامية الكبرى كالقاهرة وبغداد، وبعضهم قام بالتدريس في هذه البلاد ومنهم اليسع بن عيسى الفافقي المتوفي ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م الذي سكن الإسكندرية ثم رحل الي مصر (القاهرة) فاشتمل عليه الناصر صلاح الدين . والقاسم بن فيرة الشاطبي المتوفي ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م، استوطن مصر، واشتهر اسمه وبعد صيته، وقصده الطلبة من كل النواحي، وكان اماما، علامة، نكيا كثير الفنون، منقطع النظير، رأسا في القراءات، حافظا للحديث، بصيرا بالعربية . تصدر للقراء في مصر، فعظم شأنه، وبعد صيته، وانتهت اليه الرئاسة في الاقراء، وتصدر للقراء في المدرسة الفاضلية .

٢ - العلوم اللغوية :

حظيت العلوم اللغوية باهتمام الأندلسيين الذين أولوها عناية كبيرة، وخاصة الحكام والأمراء الذين ركزوا اختيارهم لمناصب الوزارة والكتابة والأمور العامة من بين البارزين في هذه العلوم .

ولعل أحد اسباب اهتمام الاندلسيين باللغة العربية وعلومها يرجع الي المجهود الذي كان من الواجب بذله لتعريب جميع سكان شبه الجزيرة الايبيرية واذا كانت مجموعة العلوم الدينية قد وجدت اهتماما من

المسلمين بغرض المحافظة علي الدين ونشره فقد كان من الطبيعي ان لا تلقى اهتماما من غير المسلمين لعدم حاجتهم الي تعلمها، فعلي العكس من ذلك حظيت العلوم اللسانية باهتمام كبير من غير المسلمين، وحرص كل من المسيحيين واليهود علي تعليمها واجادتها حتي كان المستعربون من اليهود والنصارى الذين حافظوا علي دينهم الأصلي يتكلمون اللغة العربية بفصاحة وطلاقة حتي القوا بها، ونظموا بها الشعر، وأصبحت هي لغة الحياة العائلية ولقد ساعد علي ذلك تعريب الدواوين والرسائل والمعاملات التجارية مما اجبر السكان جميعا علي اختلاف اديانهم علي تعلم اللغة العربية، ولقد بدأت الدراسات اللغوية في الأندلس مبكرا جدا حيث رحل الطلاب الأندلسيون في عصر الولاة وبدايات عصر الامارة وعادوا الي الأندلس محملين بكتب اللغة ثم تطورت هذه الدراسات تطورا كبيرا بمقدم بعض العلماء المشاركة الي الاندلس حتي كان مستوي اللغة في الاندلس مرتفعا جدا اعترف به ابو علي الفالي (٢٨٨ - ٣٥٦ هـ / ٩٠١ - ٩٦٧ م) أحد علماء اللغة البارزين الذين قدموا الي الاندلس علي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله .

وكان من نتيجة اهتمام الأندلسيين بالعلوم اللغوية، انها كانت من أهم ما يتعلمه الطلاب الأندلسيون منذ بداية حياتهم التعليمية، ومن ثم برز في الأندلس عدد جم من علماء اللغة اشار اليهم العالم الأندلسي الكبير ابي بكر الزبيدي في كتابه «طبقات النحويين» .

٣- العلوم العقلية :

يقصد بذلك هنا العلوم الغير متعلقة بالدين أو اللغة والتي حظيت باهتمام كبير لدي الأندلسيين أعترف به المستشرقون وكان للأندلسيين فضل كبير في نقل هذه العلوم الي أوروبا مما ساهم في قيام النهضة بها ولست في حاجة هنا الي ابراز شهادات قيمة اعترف بها مؤرخوا العلوم في أوروبا من امثال «خوان برنيت» Juan Vernet و «غونثاليت برانثيا» Gonzales Palencia و «سانشيت بيريت» Sanchez Perez و «جورجي سارتون» George Sarton وتنقسم هذه المجموعة من العلوم الى عدة افرع منها : العلوم الطبية، العلوم البحتة، العلوم الفلسفية، والعلوم الاجتماعية.

ولقد برز في هذه العلوم من علماء الأندلس عدد جم من الأطباء والرياضيين وعلماء الفلك والهندسة والفلسفة ... الخ.

وكان من اعلام هذه العلوم ايضا علماء من المسيحيين واليهود ويكفي ان نشير الي حسدادى بن شبروط Hasday Ibn Saprut مستشار الخليفة عبد الرحمن الناصر. وابنه ابو الفضل، وسليمان بن جبرول المتوفي ١٠٥٢ م Salomon Ibn Gabirol ، ويوسف بن النغيلة المتوفي ١٠٥٥ م. وغيرهم من غير المسلمين كثيرون.

اوقات التعليم :

لم يكن هناك وقت ثابت محدد للتدريس، وانما ارتبط ذلك بوقت المعلم علي وجه التحديد فهناك معلمون كانوا يدرسون صباها، وآخرون

بعد صلاة العصر، ولكن بما أن الطالب كان يقوم بدراسة أكثر من مادة واحدة في ذات الوقت، ويذهب الي اكثر من معلم في نفس اليوم فان الوقت الدراسي كان من المرونة بحيث يتناول اليوم بأكمله.

حلقات التعليم :

كان المعلم يجلس الي جوار عمود من أعمدة المجلس، ويشكل طلابه من حوله حلقة، وتعرف هذه الحلقة باسم المعلم الذي يشغلها، وبعد وفاة المعلم يقوم بشغل المكان ابنه او احد طلبته النبهاء، وكان من العادة أن يكون في الحلقة معيد او قارئ يقوم بشرح بعض ما غمض من كلام استاذة او قراءة النص الذي سيتولي الاستاذ شرحه وتفسيره . وكذلك قيامه بحفظ النظام في الحلقة، ولم يكن عدد طلاب الحلقة العلمية ثابتا، وانما كان يختلف من حلقة الي اخري وذلك حسب مكانة الأستاذ والمادة التي يقوم بتدريسها ولقد وضعت الكثير من القواعد الأخلاقية والأصول الواجب الالتزام بها في الحلقة ولقد جاءت هذه القواعد الواضحة في كتاب لابن حزم الاندلس يعرف بالأخلاق والسير.

المعلمون :

كان من الضروري لمن يقوم بالتدريس في هذه الحالة من ان يكون عالما بمادته معتمدا علي اصول وروايات صحيحة، والا تعرض للنقد وابتعد عنه الطلاب . وتبين دراسة كتب التراجم ان هؤلاء المعلمين كانوا يتمتعون بمستوي ثقافي عال، وبمعرفة موسوعية حتي وصفوا باللقاب ضخمة منها انه «أعلم الناس» أو «كان في حفظه آية من آيات الله .» الخ.

اما من الناحية الاجتماعية، فقد عاش هؤلاء في مستوى طيب سواء بين الناس او الحكام، وساعدهم علمهم علي تكوين طبقة اجتماعية متميزة أصبح لها وزنها ومكانتها حتي غدا اختيار القائمين علي الأمور العامة من بينهم.

من ناحية الأجر فيمكن لنا ان نقسم المعلمين الي فئات ثلاث :

أ- فئة تتقاضى أجرها من الجراية التي كانت تجريها الدولة عليهم او من الأجر الذي يدفع من الأحباس .

ب- فئة تتقاضى أجرها من الطلبة بناء علي عقد بين المعلم ووالد الطالب او وليه .

ج- فئة تتقاضى أجرها من الوظائف التي تسند اليها وخاصة في المساجد . وهناك من المدرسين من كانوا يقومون بالتدريس مجاناً علي اساس انه عمل خيرى .

واعتنى المعلمون بملابسهم عناية فائقة وخاصة حين يقومون بالتدريس حتي كان حبيب بين الوليد يسمع الناس في جامع قرطبة وهو يلبس الوشي الهشامي .

وقامت العلاقة بين المعلم وطلابه علي درجة طيبة من الاحترام، فكان علي الأستاذ ان يعتني بمصالح الطالب، ويعامله بما يعامل به اعز اولاده من الحنو والشفقة والاحسان اليه . حتي نمت العلاقة الي درجة ان المعلم كان يسمح لطلابه بمرافقته للتنزه في ايام الاجازات حيث يمنحهم من الحرية ما لا يتعمون به اثناء الدرس . كما ان الطلبة احبوا استاذتهم

حبا شديدا لدرجة ان يموت الاستاذ، يقوم الطلبة بمرافقة نعشه، وقراءة القرآن علي قبره .

تعليم النساء :

لا نتحدث المصادر كثيرا عن الكيفية التي تعلمت بها السيدات في الأندلس لكن هذه المصادر تبين بكل وضوح ان المرأة الأندلسية نالت حظا كبيرا من التعليم وبلغت درجة عالية من المعرفة؛ فكان منهم العالمات بالنحو والأدبيات والطببيات وغير ذلك مما يدل علي تعلم المرأة .

وتبين لنا المصادر الأندلسية ان المرأة قد تلقت تعليمها في المقام الأول بين افراد اسرتها سواء أكان ذلك الاب أو الجد أو الاخ أو العم أو الخال أو الأم أو الجدة وغير هؤلاء من الأسرة ولدينا أمثلة كثيرة علي وجود سيدات تلقين العلم في أسرهن ووصلن الي درجة عالية من التقدم .

الي جانب ذلك كانت هناك معلمات متخصصات في تعليم البنات في الأندلس فيقال عن حفصة الركونية (توفيت ٥٨١ / ١١٨٥ م) بانها كانت أستاذة وفتها وانتهد الي ان علمت النساء في دار المنصور وهناك غيرها كثيرات .

وقد قامت المرأة في الأندلس بتعليم الرجال، ومن هؤلاء امة الرحمن بنت أحمد المتوفاة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٧ م . وراضية مولاة الامام عبد الرحمن الناصر واشراق السويدية الي كانت تدرس كتاب النوادر لأبي علي القالي، والكامل للمبرد وكانت تحفظ الكتابين ظاهرا، وتتكلم عنهما .

وتبين لنا المصادر ايضا ان النساء كن يتلقين العلم علي ايد المعلمين

الرجال وانهم كن يذهبون الي المساجد، فقد ورد في ترجمة محمد بن علي الفخار المتوفي ٧٢٣ / ١٣٢٣ : استوطن مالهه، وتصدر للاقراء بها، وكان يفتي النساء في المسجد الي ما بعد العصر. كما ان سعيد بن عثمان المقرئ المتوفي ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ قد علم ربحانه القراءات القرآنية. ولا يمكن ان تغفل دور العلماء فاقدني نعمة البصر في تعليم النساء حيث يرد ذلك كثيرا في كتب التراث الأندلسي.

هناك الجواري اللواتي كن يتعلمن ويتتقن علي يد مواليهن، او يعهد بهن الي من يؤدبهن، ولقد كانت بعضهن ذات ثقافة عالية شاملة متنوعة حتي ليعجز فرد واحد عن تزويدهن بتلك الألوان المختلفة من الثقافة، مما يدفع علي الاعتقاد بأن اسيادهن كانوا يبعثون بهن الي المؤدبين والأساتذة، أو يحضرون لهن بأولئك المؤدبين والأساتذة الي المنازل.

المرحلة التعليمية الثالثة :

من الصعب جدا القول بوجود فاصل واضح بين المرحلتين التعليمية الثانية والثالثة وذلك لأنهما متشابكتان تماما، وان تميزت المرحلة الأخيرة بالتعمق والتخصص، وارتفاع سن طلبتها، وازدياد مكانة الشيوخ الذين يقصدون للتعليم عليهم. الي جانب ذلك كله فيمكن اعتبار المرحلة الثالثة بأنها مرحلة استكمالية يحاول الطالب فيها ان يستكمل دراساته التي قد يعتقد انه لم يستكملها من قبل، كما انها عملية تجديد مستمرة لمعلومات المتعلم، وذلك فهي لا تتميز بسن محددة او حتي ترتبط بمكان معين.

أماكن الدراسة :

تنوعت أماكن الدراسة في هذه المرحلة تنوعا كبيرا، علي ما كان عليه الحال في المرحلة المتوسطة، وظل المسجد هو المكان المفضل دائما لحلقات العلم التي كان يعقدها كبار الشيوخ، وإن تبوأَت المساجد الجامعة مكانة خاصة في هذا المجال.

وأهمها علي الإطلاق مسجد قرطبة الجامع الذي يمكن ان نعتبره بمثابة أول جامعة في عرب العالم الاسلامي، وأول جامعة في اوربا، والمنازة الحقيقية للعلم في تلك العصور.

والمدرسة، وخاصة في الاندلس، لم تكن تضم بين مدرسيها الاكبار علماء العصر، ويسعي الطلاب اليها لتحصيل درجة عاليه من العلوم.

وهناك أماكن اخري كثيرة ساهمت في تطور الحركة العلمية في الأندلس، وأثرت فيها تأثيرا كبيرا، ومنها :

- المجالس العلمية : سواء التي كان يعقدها الأمراء منذ بدايات الأسرة الاموية حتي سقوط غرناطة، او التي كان يعقدها كبار العلماء والشخصيات الاندلسية وكان الحوار فيها عميقا متخصصا بين علماء متضلعين متخصصين.

- اما المكتبات : فقد انتشرت انتشارا واسعا في اسبانيا الاسلامية فظهرت مكتبات القصور الخلفية، وكانت اعظمها مكتبة الحكم الثاني ثم مكتبات امراء الموحدين، ومن ناحية اخري، اهتم كبار الناس وعامتهم بالحصول علي الكتب، واقامة مكتباتهم الخاصة ونتيجة لذلك حدثت

حركة اعارة نشطة جدا وتم تبادل الكتب بين الطلاب والمعلمين حتي
اصبحت المكتبات مكانا عاما يساهم في تعميق المعرفة، ومكانا للحوار
والمناظرة.

وثمة اماكن اخري ساهمت بصورة فعالة في النشاطات التعليمية،
وفي اللقاء بين المعلمين والمتعلمين، مثل حوانيت الوراقين، واماكن تجليد
الكتب، كما ان مصانع الكاغد التي نشأت بشاطبة، والتي لم يكن لها نظير
في معمر الأراض والتي عمت المشارق والمغرب علي سطح المعمورة
كما يقول الادريسي.

المدرسة في الأندلس :

من القضايا الهامة التي يثار حولها الجدل قضية ظهور المدرسة في
الأندلس، ولأهميتها الخطيرة في الحياة التعليمية فاننا لابد وان نتوسع في
الحديث عنها قليلا ...

ويري كثير من المؤرخين ان المدارس قد ظهرت في بلاد المغرب
في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه في بلاد المشرق الاسلامي مع اختلاف
بسيط من ناحية الشكل او الهدف. ويؤكد الدكتور عبد الهادي النازي انه
«بعد ثلاث سنوات فقط من تأسيس المدرسة النظامية في بغداد عرفت
مدارس احتضنت الطلبة المغتربين الذين يردون بقصد الدراسة من سائر
البلاد، وحدد وجود مدرسة للمرابطين عام ٤٦٢ / ١٠٩٦ م بناها الأمير
يوسف بن تاشفين بعد دخوله المدينة حوالي التاريخ المذكور، وأن
طلاب هذه المدرسة قد قاوموا الموحدين مقاومة شديدة حتي قتلوا جميعا،

ولذا سميت بمدرسة الصابرين، وإن اطلال هذه المدرسة مازالت ماثلة الي الآن ويؤكد ذلك ايضا د. حسن علي حسن بقوله : «وجه ولاية الأمر بالمغرب الاقصي اهتمامهم الي التعليم، ونشأ عن ذلك أن بنوا عدة مدارس في اجزاء متفرقة من البلاد، وذلك لتخريج المتعلمين، وكانت اولي المدارس التي انشئت في عهد يوسف بن تاشفين تسمي مدرسة الصابرين» .

وكذلك اهتم الموحدون ببناء المدارس، واول من فعل ذلك هو الخليفة عبد المؤمن بن علي حين بني مدرسة ملحقة بقصره لتخريج الحفاظ، وقام المنصور الموحيدي ببناء عدة مدارس في انحاء متفرقة من البلاد يقول عنها ابن ابي زرع : «ويني - اي المنصور - المساجد والمدارس في بلاد افريقية والمغرب والأندلس» .

ولعب بنو مرين دورا أساسيا في نشر المدارس والاهتمام بها في جميع انحاء المغرب وكانوا أكثر نشاطا وأوفي همة في ذلك المجال .

وشارك الاهالي الحكام في بناء المدارس، كما شاركوا في بناء المساجد فنري ان علي بن محمد بن علي بن يحيى بن عبد الله الخافقي - كان رجلا جماعة للكتب، منافسا فيها، مغاليا في ايمانها وربما عمل الرحلة في التماسها، حتي اقتني منها بابتياح والانتساخ كل علق نفيس ثم انتقي منها جملة وافرة فحبسها في مدرسته التي أحدثها بقرب باب القصير، احد أبواب بحر سبتة، وعين لها من خيار املاكه، وجيد رباعه وقفا صالحا، سالكا في ذلك طريقة أهل الشرق، وقعد بها بعد اكمالها لتروية الحديث واسماعه في رجب عام خمس وثلاثين وستمائه

(١٢٣٧م)

وليس من المعقول ان تقف بلاد الاندلس بمعزل عن ذلك التطور الهام في مجال الحركة التعليمية رغم تأكيد ابن سعيد ان «ليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم علي طلب المعلم، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة». فنحن نجد بعض الاشارات الدالة علي ظهور المدارس في الاندلس في فترة باكورة ومنها قول ابن فرحون المتوفي ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م عند هديثه عن ابي علي الصدقي المتوفي ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م : «ثم عاد الي الاندلس - وذلك عام ٤٩٠ هـ ١٠٩٦ م - واستقر بمدرسة مرسية، ورحل اليه الناس» ، كذلك رواية ابن أبي زرع عن الملقان الموحدي ابي يعقوب بن عبد المؤمن ٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م ، فقد ذكر انه : «حصن البلاد وضبط الثغور وبنى المساجد والمدارس في بلاد افريقية والمغرب والاندلس كما بدأت كلمة مدرسة تظهر ضمن اشعار الأندلسيين خلال القرن السابع وخاصة في رثاء المدن واستصراخ الهمم لانقاذها، ومن ذلك قول ابن الأبار في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله اندلسا ان الطريق الي مخرجاتها درسا
يقول :

يا للمساجد عبادت للعنا بيعا وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها الي استرجاع فانتها مدارس للمثاني اصبحت درسا
ويقول شاعر آخر ثم يسمه المقري :

بابي مدارس كالطبول دوارس نسخت نواقيس الصليب نداءها
ومصانع كسف الضلال صباحها فيخاله الرانسي اليه مساءها

ثم بدأت الامور تتضح بالنسبة لمدارس الاندلس في القرن السابع حيث ظهرت المدارس المؤكدة ومنها :

مدرسة مرسية : وهي مدرسة اقامها الامير المسيحي الفونسو العاشر بعد استيلائه علي المدينة عام ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م للعالم المسلم الشهير محمد بن أحمد الرقوتي المرسى ، لكي يعلم فيها أبناء الديانات الثلاث ثم أغلقت هذه المدرسة بانتقال الفقيه المسلم الي غرناطة قبل نهاية القرن السابع .

مدرسة غرناطة الأولى :

اقام هذه المدرسة السلطان ابو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ) . للفقيه محمد بن احمد الرقوتي بعد ان استقدمه من مرسية وأسكنه في أعدل البقع بحضرته . وكان الطلبة يغشون منزله المعروف له ، فيتعلمون عليه الطلب والتعاليم وغيرها ، اذ كان لا يجاري في ذلك ، وكان قوي المعارضة ، متضلعا بالجدل ، وكان السلطان يجمع بينه وبين منتابي حضرته ممن يقدم منتحلا صناعة أو علماء ، فيظهر عليهم لتمكنه ونبالته .

مدرسة مالقة :

من المحتمل ان تكون مالقه قد شهدت أكثر من مدرسة . ولكن الوثائق تشير الي مدرسة صوفية أنشأها الفقيه محمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري المعروف بأبي عبد الله الساحلي ٦٧٨ - ٧٥٤ هـ / ١٢٧٩ - ١٣٥٣ م حيث بناها من مال أعطاه اياه بعض الاغنياء من

وزراء الدول بالمغرب وأقامها في الجانب الغربي من المسجد الأعظم وأوقف عليها الرباع، وابتني غيرها من المساجد وتري الدكتور ماريّا خيسوس ريبيرا، انه ربما كانت هذه المدرسة هي أول مكان في الأندلس يمارس فيه التعليم بعيدا عن المسجد.

المدرسة النصرية بغرناطة :

أشهر مدارس الأندلس والمغرب عامة بناها السلطان الغرناطي أبو الحجاج يوسف الأول عام (٧٥٠هـ/١٣٤٩م)، وأشرف على بنائها الحاجب رضوان النصرى المعظم، واجمع المؤرخون على مكانتها وعظمتها التي غطت علي ما كان قبلها، وما زالت بعض اجزاء هذه المدرسة بنقوشها الاسلامية الرائعة باقية في مدينة غرناطة حتى يومنا هذا بجوار الكاتدرائية الكبرى.

طلاب هذه المرحلة :

كان طلاب هذه المرحلة من المتقدمين في السن نسبيا، اذ أنهم انما واصلوا الدراسة والاستماع الي الشيوخ والعلماء حبا في العلم ورغبة في الاستمرارية وأملا في الحصول علي مرتبة العلماء المعروفين، ولذلك كانوا جميعا من أهل العلم والمعرفة ومن سبق لهم حضور مجالس العلماء والشيوخ والمؤدبين في المساجد والمدارس أو غيرها من دور العلم المتاحة في ذلك الوقت، ونستطيع أن ننتبين مستوي الطلاب العلمي ونوعيتهم من القاء نظرة علي بعض تراجم علماء هذه المرحلة، فيقال عن الأديب الراوية أبي عبد الله محمد بن سليمان النفزي المعروف «بابن أخت غانم»

أن : أصله من مالقة، وبها سكناه، ولكنه لزم قرطبة كثيرا وكان شيخا مسنا من شيوخ أهل الأدب والنحو والرواية وجمع الكتب. أخذ عنه الناس هذين العلمين كثيرا ودرسهما عمره بغير أجر وسمع منه كتب الحديث والغريب وحمل عنه جملة من المشايخ والنبلاء لعلو سنده ومعرفته. وإذا كان الطلاب عند هذا العالم هم من المشايخ والنبلاء فإننا نجدهم عند عباس بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدي المتوفي ٨٦٥هـ / ١٤٦٠م من نبهاء مدينة غرناطة، أما الامام محمد بن محمد الانصاري السرقسطي الذي كان من أحفظ الناس لمذهب مالك فقد حضر عليه عدد كبير من جلة العلماء منهم ابن الأزرق.

شيوخ هذه المرحلة :

كان علماء هذه المرحلة ممن يشار إليهم بالبنان علما وخلقا ومكانه في فئهم، وكان الحكام وجمهور الناس يحرصون علي ان لا يحتل مقعد التدريس في المساجد الجامعة والمدارس الا من انتهت اليه المهارة في العلم والدين في وقته، وكانت تلك المرتبة تهفو اليها نفوس هؤلاء القوم فلم يدخروا وسعا في الارتقاء بمعارفهم وعلومهم الي درجة حملت الناس علي اختلاف طبقاتهم - علي احترامهم احتراما مهيبا. والقاء نظرة علي تراجم هؤلاء العلماء تعطينا فكرة واضحة عن مستواهم العلمي، والي الفاريء الكريم بعض الترجمات من عصور مختلفة :

أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن زكريا، المعروف بالاقليبي، من أهل قرطبة المتوفي ٤٤١هـ / ١٠٤٩م : كان من أئمة النحو اللغة، وله معرفة بالكلام علي معاني الشعر، وشرح ديوان المتنبي شرحا جيدا، وهو مشهور،

وكان متصدرا بالأندلس لأقراء الأدب، كان حافظاً للأشعار، ذاكرة للأخبار، وأيام الناس.

أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي المتوفي ٥٤٢هـ/١١٤٧م «فقيه محدث مشهور، أديب، نحوي، شاعر ألف في التفسير كتاباً ضخماً أربى فيه علي كل متقدم» أما أبو علي عمر بن محمد بن عبد الله الأزدي المعروف بالشلوبين المتوفي ٦٤٠هـ/١٢٤٣م فقد كان أسند من بقي في المغرب، وكان في العربية بحراً لا يجاري، وخبيراً لا يباري، تصدر لأقراء النحو ونحو من ستين عاماً. والامام أبو محمد الأنصاري السرقسطي المتوفي ٨٦١هـ/١٤٥٩م كان عالم غرناطة ومفتيها، كما كان من أحفظ الناس لمذهب مالك.

وكان أهل الأندلس حريصين علي أن يتصدر مساجدهم الجامعة أمثال هؤلاء الطماء الأجلاء، ومن ذلك دعوة أهل مالقة لعالم اللغة الكبير أبي علي محمد بن عبد المجيد الأزدي الرندي المتوفي ٦١٦هـ/١٢٨٩م للتدريس في مسجدهم والاقراء به بعد وفاة أبي القاسم السهيلي فأجابهم الي ذلك، ولم يفارقهم الي حين وفاته كما ان محمد بن يحيى بن علي مفرج الأنصاري المتوفي ٦٥٧هـ/١٢٥٨م. قد جلس للناس بالجامع الكبير بعد أبي عبد الله الفنجالي

وأما محمد بن ابراهيم الأوسي المتوفي ٧١٥/١٣١٥م من اهل مرسية فقد أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة، لما استقدمه السلطان ثاني الملوك من بني نصر، من مدينة بجاية فانتفع الناس به. وعلي بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله الكنانى المتوفي ٧٣٠هـ/١٣٣٠م كان أوجد

اهل زمانه علما وتُخلفاء، وتواضعوا وتُفَنُّنا، ورد الي غرناطة ستعدى عام ٨٧١٢هـ/١٣١٢م. وقعد بمسجدها الاعظم يقرىء فنونا من العلم، من قراءات وفقه وعربية وادب.

وكان العلماء المختارين للتدريس في المدارس من تلك الطبقة الرقيقة، فمنهم الحسين بن محمد بن منيرة المعروف بابي علي الصدي المتوفي ٥١٤هـ/١١٢٠م صاحب مدرسة مرسية، كان امام عصره في علم الحديث، وآخر ائتمته في الاندلس، كان حافظا للحديث، واسماء رجاله وعلمه، كان اماما في الفقه.

والشيخ الفقيه محمد بن أحمد الرقوتي المرسى، الذي بني له الفونس العاشر مدرسة في مرسية، كان حجة في المعرفة القديمة والمنطق والهندسة والعدد والموسيقا والطب كما كان فيلسوفا وطبيبا ماهرا، آية الله في المعرفة بالألسن، يقرىء الأهم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون في تعلمها، شديد البأس، مترفعا، متعظما.

ومن علماء المدرسة النصرية نجد محمد بن علي بن أحمد الخولاني المتوفي ٧٥٤هـ/١٣٥٤م أستاذ الجماعة، وكان رحمه الله، عاكفا علي العلم ملازما للتدريس امام الأئمة من غير مدافع، مبرزاً، امام أعلام البصريين من النحاة منتشر الذكر، بعيد الصيت عظيم الشهرة، مستبحر اللفظ، ويتفجر بالعربية تفجر البحر، ويسترسل استرسال القطر فقد خالطت دمه ولحمه لا يشكل عليه منها شكل ولا تشذ منه حجة.

وفرج بن قاسم بن لب، شيخ شيوخ غرناطة، كان شيخا فاضلا عالما متذنباً، انفرد برئاسة العلم، واليه كان المفزع في الفتوى، وكان اماما في اصول الدين وأصول الفقه.

نظام الدراسة :

كانت الحلقات التي تعقد هي الوسيلة الشائعة للتدريس حيث يجلس الشيخ مستندين الي جوار عمود بالمسجد او المدرسة، ويلتف حولهم طلابهم يستمعون اليهم.

ويرجع انشاع الحلقة او ضيقها الي مكانة الأستاذ نفسه، ويمكن لنا ان نتصور الاقبال الشديد علي حلقات هؤلاء الكبار، ويبدأ الدرس بحمد الله والصلاة والسلام علي رسول الله، ثم يأخذ المعلم في النقاش حسب المادة التي يدرسها، ولذلك اختلفت طرق التدريس في هذه الحلقات باختلاف المادة العلمية التي يتولي الأستاذ شرحها، فقد كان أحمد بن عثمان من أهل طليطلة، المتوفي ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م يبدأ المناظرة بذكر الله، والصلاة علي محمد عليا السلام. «ثم يورد الحديث والحديثين والثلاثة والموعظة ثم يبدأ بعد ذلك الشرح في الكتاب الذي كانوا ينظرون عليه فيه».

الرحلة :

أما أبرز ما يميز الدراسة في هذه المرحلة العالية فكانت الرحلة في طلب العلم من مكان الي آخر، والحصول علي أكبر قدر ممكن من المعرفة، وكلما طالت مدة الرحلة وكثر عدد العلماء الذين التقى بهم الدارس زادت مكانته.

وانقسمت الرحلة الي قسمين رئيسيين، فهناك الرحلات الداخلية أي داخل الأندلس وكانت تحقق لأهلها مكانة عالية لا تقل عن الرحلات

الخارجية، فيقال عن العالم الكبير يوسف بن عبد البر النمري، المتوفى ٤٠٨ هـ/١٠١٧ م. انه : فقيه حافظ مكثّر، عالم بالقراءات، وبالخلايف في الفقه، ويعلم الحديث والرجال، قديم السماع، كثير الشيوخ، علي انه لم يخرج من الاندلس، لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها ومن الغرباء القادمين اليها. كما أن (أحمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن الباجي، كان يقول عنه الصبي : «لم أر بقرطبة ولا بغيرها من كور الأندلس رجلاً يقاس به في علمه بأصول الدين وفروعه .. جمع له والده علوم الأرض فلم يحتج الي أحد، الا أنه رحل متأخراً للحج» وكانت الرحلة الداخلية قصيرة نسبياً، وان فضل بعض العلماء أن تطول ما أمكن، فيري القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد أنه قال : «لما رحلت الي قرطبة قرأت علي الحافظ أبي بكر - يقصد أبا بكر بن العربي - ولزمته فسمعتني ذات يوم أذكر الانصراف الي وطني بالمرية، فقال لي : ما هذا القلق ؟ - اقم حتى يكون لك في رحلتك عشرة أعوام كما كان لي» .

أما الرحلات الخارجية الأندلسية فقد أخذت طريقها من الأندلس الي باقي أصقاع العالم الاسلامي، وكان الحج حافزاً آخر الي جانب الحافز العلمي، مما جعل الرحلة بين الاندلسيين شبه فرض أكيد لكل من كان يرغب في مواصلة تعليمه العالي، والامثلة علي رحلات الاندلسيين كثيرة جداً، ويكفي للدلالة علي رحلات تلك الفترة رحلة القاضي ابي بكر بن العربي رحمه الله .

وهناك الكثيرون من الطلاب من قاموا بالرحلتين الداخلية والخارجية معا حيث يبدأ بالاولي ثم يثني عليها بالرحلة الي خارج الاقليم .

ولم يكن الطالب يرحل الي مدينة بغرض التعليم علي معلم واحد فقط، رغم أن شهرة المعلم تجذب الطلاب الي مدينته مثلما هو الحال علي عهد أبي علي الصدي في مدينة مرسية، بل ان الطلاب كانوا ينتهزون فرصة وجودهم في مدينة ما للاستماع ولقاء أكبر عدد من شيوخها وعلمائها.

الاجازة الدراسية :

الاجازة في الأصل ضمان بعلم الطالب، وقدرته علي نقل هذا العلم وهي شهادة يمنحها الأستاذ لطلابه عند انتهائهم من دراسة كتاب معين وهي نوعين : شفوية وتحريية، والاولي اقدم عهدا من الثانية ولكن مع تطور الأيام فقدت الاجازة هذا المضمون الهام، أى كونها ضمانا لمعرفة الطالب لما نقله عن أستاذه، واصبحت مجرد شهادة باللقاء والسماع دون أن تعني اطلاقا مدي تعمق حامل الشهادة أو معرفته بما حدد له في الاجازة حتي لقد ظهرت بعض الاجازات العامة التي تبيح «لمن أحب الرواية عني من جميع المسلمين من أهل السنة، ممن هو موجود في هذه السنة».

النساء في هذه المرحلة :

شاركت النساء الأندلسيات بباع طويل في المعركة العلمية العالمية في الأندلس حتي شهد لهن حافظ عصره المقري حين ذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتي لهن اليد الطولي في البلاغة، «كي يعلم ان البراعة في أهل الأندلس كالغريزة لهم، حتي في نسائهم وصبيانهم.

والأمثلة كثيرة علي ذلك ومنها أن ولادة بنت المستكفي بالله المتوفاة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م كانت أدبية، شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، وكانت تناضل الشعراء وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء. وكان محلها بقرطبة منتدي لآحرار مصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر.

ومريم بنت يعقوب الأنصاري، كانت أدبية شاعرة جزله مشهورة وكانت تعلم النساء الأدب، وتحثنم لدينها وفضلها.

وأم الهناء بنت القاضي أبي محمد بن عبد الحق بن عطية التي كانت حاضرة النادرة، سريعة التمثل، من أهل العلم والفهم والعقل، ولها تأليف في القبور.

والشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية أستاذة الشواعر في عصرها لكونها تمتلك قوة شعر هائلة، وأداة مطواعة فنية بواتها تلك المكانة الأدبية، ولقد ذكرها ابن الخطيب نقلا عن ابن بشكوال بأنها كانت أستاذة وقتها.

ومن نساء المرابطين، كانت الحرة حواء أدبية شاعرة جليلة ماهرة، وينقل ابن عذارى عن مالك بن وهيب قوله : مرت الحرة حواء اللمتونية بمراكش بمجلس الكتبة والشعراء، وكانت تحاضرهم فيه، وكانت ذات نباهة وخطر فاجتمع يوما في ذلك المجلس جماعة، فلما غص المجلس، أقبلت الحرة تريدهم وهم يتحادثون، وبأخذون الشعر ثم يكمل الرواية فيبين مساجلتها لهم الاشعار وتفوقها علي الحاضرين.

أما الموحدون فقد أولوا النساء المثقفات علي عصرهم اهتماما خاصا،

ومن بنات الخلفاء المثقفات ، زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن وكانت عالمة، صائبة الرأي فاضلة معروفة بالتفوق علي نساء زمانها.

ويزي المستشرق الأسباني خوليان ريبيرو أن النساء الأندلسيات لم يقف نشاطهن عند حد الدراسة في اسبانيا فحسب، وانما رحلن الي الخارج ليدرسن كالرجال سواء بسواء.

تعلم غير المسلمين في الأندلس :

تحفل كتب التراجم الأندلسية والمدونات التاريخية بأسماء علماء وأدباء وشعراء من المسيحيين واليهود، وتشير اليهم علي أنهم أعلام كبار في مجالات تخصصهم.

كما أوردت هذه المدونات وكتب التراجم نماذج من انتاج هؤلاء العلماء غير المسلمين مكتوبا باللغة العربية بأسلوب راق ومتميز مما يدل علي تمكنهم من هذه اللغة تمكنا تاما.

تعليم غير المسلمين في الأندلس :

تحفل كتب التراجم الأندلسية والمدونات التاريخية بأسماء علماء وأدباء وشعراء من المسيحيين واليهود، وتشير اليهم علي أنهم أعلام كبار في مجالات تخصصهم.

كما أوردت هذه المدونات وكتب التراجم نماذج من انتاج هؤلاء العلماء غير المسلمين مكتوبا باللغة العربية بأسلوب راق ومتميز مما يدل علي تمكنهم من هذه اللغة تمكنا تاما.

وإذا كانت أماكن العبادة في العصور الوسطى هي المؤسسات التعليمية السائدة، فإذا كان المسلم يذهب إلى المسجد لتعلم أمور دينه، فمن الطبيعي أن يذهب المسيحي إلى كنيسه، واليهودي إلى معبده، ولكن بما أن اللغة العربية كانت هي لغة الثقافة والعلم والأدب فقد كان من الطبيعي أن تكون هي لغة التعليم ولذلك كان طبيعياً أن يكون المعلمون من العرب أو ممن يلقي العلم على العرب.

وإذا تصفحنا كتب التراث العربي فإننا نجدنا أمام نماذج من العلماء المسيحيين واليهود وقد ضربوا بسهم وافرقى علوم العربية حتى تفوقوا في بعض الأحيان على العرب أنفسهم، ولقد أطنب المقرئ في إيراد نصوص مما قال به أبو الفضل حسداى بن يوسف بن حسداى اليهودي المتوفى ٥٠٠هـ/١١٠٦م والذي «تناول المعارف من طرقها فأحكم علم لسان العرب، ونال حظاً جزيلاً من صناعة الشعر والكتابة والبلاغة، وبرع في علوم الرياضة والفلك والطب، واتفق علم المنطق»، وتؤكد هذه النصوص بلاغة حسداى وتفوقه في علم العربية نثراً وشعراً. أما عن إبراهيم بن سهل الأسرائيلي المتوفى ٦٤٩هـ/١٢٥١م فقد وصفه بأنه شاعر أشبيلية ووشاحها، وأنه قرأ على أبي علي الشلوبين وابن الرجاج وغيرهما من علماء المسلمين كما يؤكد المقرئ نقلاً عن مؤرخين معاصرين أن ابن سهيل «كان يقرأ مع المسلمين ويخالطهم».

ويورد المقرئ أدلة كثيرة على أن يهود الأندلس كانوا يشغلون بعلم العربية وأورد أشعاراً رائعة لعدد منهم، حيث يشير إلى إبراهيم ابن الفخار بأنه كان شاعراً ممتازاً يقف على قدم المساواة مع الشعراء المسلمين،

ومنهم ايضا الشاعر الياس بن المدور اليهودي، والشاعرة اليهودية قسموته بنت اسماعيل اليهودي والذي كان شاعرا ايضا وكثيرا ما كانا يتنافسان في قول الشعر بالعربية، واورد المقرئ نصوصا لذلك.

أما بالنسبة للمسيحيين فان تعريبهم كان واضحا وجليا بحيث أصبحت العربية بالنسبة لهم هي لغة الحياة اليومية، ولغة التعبير الأدبي، وليس ادل علي ذلك من شكوي الراهب القرطبي «الفارو» والتي يؤكد فيها اقبال المسيحيين علي اللغة العربية وانصرافهم عن اللاتينية.

وهناك اشارات كثيرة تدل علي تعلم المسيحيين مع المسلمين في اماكن تعلمهم، وانهم أخذوا من ثقافتهم.

ويقول الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم «لاشك أن كثيرا من نصاري الاندلس من اهل قد تعلموا علوم العربية، واستعربوا، مضطرين الي مشاركة المسلمين حياتهم، رغبة في تقلد المناصب الكبرى في الادارة والدواوين.

الي جانب نصاري الاندلس، فقد تلقى العلم في معاهد المسلمين عدد لا بأس من الطلبة المسيحيين القادمين من خارج الأندلس، والذين وجدوا في الاندلس المنهل العلمي الوافر الذي مكنهم من ان يعودوا الي بلادهم بعد ذلك محملين بعلوم جديدة كانت هي الاساس الذي قامت عليه النهضة الاوربية فيما بعد.

قرطبة الإسلامية وآثارها الباقية

للمدن في تاريخ الإنسانية سجل لا يقل أهمية عن سجل الدول والملوك
والعظماء وهناك مدن سجلت على صفحات الزمان تاريخاً خالداً ، ومجداً
ساطعاً ، لا يمكن أن ينسى بمرور السنوات والأعوام مهما طالت ، أو
القرون مهما زادت .

ومن تلك المدن ،،،،،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدينة قرطبة الأندلسية ، عاصمة الإسلام والمسلمين في الأندلس ، ومحط جهاد المسلمين خلف جبال البربات ، مقر قادة الفتح الإسلامي في جنوب فرنسا ، مدينة قديمة ، واحتلت مكانة بارزة ضمن المدن الأيبيرية سواء في العهد الروماني أو العصر القوطي اللذان سادا في أسبانيا والبرتغال عدة قرون قبل الإسلام .

وفي العقد الأخير من المائة الأولى من الهجرة ، كان الله سبحانه وتعالى قد وفق المسلمين إلى استكمال فتح بلاد المغرب قاطبة ، ومن ثم أصبح المسلمون على مشارف مضيق جبل طارق ، وعلى الجانب الآخر من بلاد الأندلس .

واستأذن القائد المسلم موسى بن نصير الوليد بن عبد الملك خليفة المسلمين في فتح بلاد الأندلس ، ووضعها الخطة المناسبة لذلك .

أعد موسى جيشه بقيادة طارق بن زياد - رحمة الله - بعد أن تأكد من إمكانية نصر الله ، وذلك باختبار المنطقة ببعض سرايا التي أنفذها إلى بلاد الأندلس قبل حملة طارق على هذه البلاد .

عبر طارق بجيوش المسلمين المضيق الذي عرف باسمه منذ ذلك الحين والتقى مع جيوش النصارى بقيادة لذريق في معركة حاسمة وقوية ، عرفت في التاريخ باسم معركة وادي لكة ، أو معركة شذونة وذلك في شهر رمضان من عام اثنين وتسعين هجرية الموافق يولييه عام أحد عشر وسبعمائة للميلاد .

انتصر المسلمون انتصاراً رائعاً فى هذه المعركة ، وقتل الملك النصرانى ، وتفرق جيشه ، وحاز المسلمون خيولهم ومنايعهم .

تقدم المسلمون بعد ذلك لفتح المدن الأسبانية ، فاتجه طارق إلى عاصمة القوط ، وهى مدينة طليطلة ، وفى نفس الوقت أرسل طارق أحد قاداته وهو مغيث الرومى - رحمه الله - عيسى رأس فرقة مكونة من سبعمائة مقاتل مسلم فأقبل مغيث ورجاله نحو المدينة ليلاً يستترهم الظلام ، وفاجؤا حرسها على غفلة منهم ، وارتقى بعض المسلمين الأسور ، ووثبوا إلى داخل المدينة ، وهجموا على حرس بابها الجنوى ، فقتلوا منهم نفراً ، وفتحوا الباب ، فتدفق الجيش الإسلامى إلى داخل المدينة ، واستولى عليها عنوة بحمد الله وتوفيقه ؛ وظلت منذ ذلك الحين مدينة إسلامية .

حينما استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك القائدين الكبيرين موسى وطارق إلى المشرق ، ترك موسى بن نصير ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس ، واتخذ له مدينة أشبيلية عاصمة له ؛ ثم قتل عبد العزيز بن موسى ، وتولى الحكم فى الأندلس أيوب بن حبيب اللخمي وهو ابن عمه عبد العزيز بن موسى بن نصير .

قام أيوب بنقل الإمارة من أشبيلية إلى قرطبة ، ومنذ ذلك الحين فى عام ٩٧ هـ ظلت مدينة قرطبة عاصمة للمسلمين فى الأندلس إلى أن سقطت الخلافة الإسلامية فى الأندلس فى عام اثنين وعشرين وأربعمائة للهجرة كما أنها ظلت العاصمة الروحية للمسلمين فى الأندلس حتى سقوطها فى أيدي النصارى فى عام ثلاث وثلاثين وستمائة للهجرة الموافق

لعام ست وثلاثين ومائتين وألف للميلاد ، أي أنها ظلت مدينة إسلامية قرابة الستة قرون .

وبدأت المدينة فى ارتداء ثوبها الإسلامى منذ عهد الخلفه العادل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه حين عين عليها السمع بن مائل الخولانى فى عام مائة هجرية ، فقام رحمة الله بتجديد سورها الرومانى القديم ، وسد ما به من ثلمات ، ثم قام باستخدام بعض حجارة السور المختلفة منه فى إعادة بناء قنطرة قرطبة المقامة على نهر الوادى الكبير التى تربط بين جنوب الأندلس وشماله ، فأصبحت هذه القنطرة إحدى أعاجيب الدنيا ، وأعظم آثار الأندلس .

وقفزت المدينة خطوات واسعة إلى الأمام فى عهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، المعروف بعبد الرحمن الداخل أو صقر قریش ، الذى قام فى تعظيمها فجدد مغانيها، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى بها قصر الإمارة ، والمسجد الجامع الذى سنشير إليه ، وابتنى إلى جوارها مدينة الرصافة متنزهاً له ، واتخذ بها قصراً حسناً ، وجاناً واسعاً ونقل إليها غرائب الأغراس ، وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من البلاد .

وشهدت قرطبة تطوراً كبيراً على عهد الأمير هشام ، الذى زاد فى مسجد أبيه وشيد بها كثيراً من المساجد والمباني .

وظلت مدينة قرطبة تواصل تقدمها وزيقها على عهد أمراء بنى أمية حتى وصلت إلى قمة مجدها وعظمتها إبان القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، وهى الفترة التى نسميها عصر الخلافة فى الأندلس ، وهى

بحق العصر الذهبي للمسلمين في هذه البلاد ، لأن قرطبة قد شهدت تطوراً
عمرانياً زخامياً واجتماعياً جعلها من أعظم مدائن الغرب ، بل أحسن مدائن
العالم كله في تلك الوقت .

يقول عنها الجغرافي المسلم ، الشريف الإدريسي : ومدينة قرطبة ،
قاعدة بلاد الأندلس ، وأم مدائنها ، ودار الخلافة الإسلامية ، وفضائل أهل
قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أطهر من أن تستر ، وإليهم
الانتهاء في المساء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ذكروا
بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزي في الملابس والمراكب ،
وعلو الهمة في المجالس والعرائب ، وجميل التخصيص في جميع المطاعم
والمشارب ، مع جميل الخلقة .

وينصها الحيناري بقوله : بأنها منتهى الخاية ، ومركز البراية ، وأم
القرى بقرارة أولى الفصن ، وتقى ، ورطب أولى العلم والنهى ، وقلب الإقليم
، وينبوع متفجر العلوم ، من أفقها طلعت نجوم الأرض ، وأعلام العصر ،
وقربان النظم والنثر ، الخ .

وأعجب بها الغربيون إعجاباً كبيراً فوصفوها بأجمل الصفات ،
وأطلقوا عليها أجمل الأوصاف حتى قيل فيها ، إن قرطبة سخطل اسماً عربياً
ضالماً ، ويستبقى رمزاً الحضارة الإسلامية وجهود المسلمين . وكم وقف
السفر الغربيين منبهزين أمام عظمة مبانيها ، وكثرة مساجدها وحماماتها
، ونوادى مكباتها .

تقدمت مدينة قرطبة لتساعدها إلى عدة مدن داخلية وبعيدة
أرغمتها إلى إنشاء مستعمرات رومانية ، وأصبحت تورد في أيام المنعجب

المنصور ، فى نهاية القرن الرابع الهجرى فكانت سبعاً وسبعين وثلاثة عشر ألفاً ومائة ألف دار .

وهذه دور الرعاية ، أما دور الأمراء ، والأكابر ، والوزراء ، والرؤساء ، والقواد ، والكتاب ، والأجناد ، وخاصة الملك ، فبلغت ثلاثمائة وستون ألف دار سوى مصارف الكراء والحمامات والخانات .

وكان عدد مساجد المدينة حوالى سبعة وثمانمائة وثلاثة آلاف مسجداً ، بل يبالغ بعض المؤرخين فيجعلها نيف وسبعون وثمانمائة وثلاثة عشر ألف مسجد .

وكان عدد حماماتها أحد عشر ألفاً وسبعمائة وثلاثة عشر ألف حمام ، وكان بها من الفنادق والخانات ستمائة وألف فندق لسكن التجار والمسافرين والمعزبات والغرباء وغيرهم ، وكان بها من الحوانيت اثنتان وخمسون وأربعمائة وثلاثون ألف حانوت .

انتهت دور قصرها الكبير الذى ينزله الخلفاء والملوك إلى نيف وثلاثون وأربعمائة دار ، كلها للملك وحرمة وفتيانه .

ومع كل هذه الضخامة والروعة ، فإن قرطبة قد ضاقت أمام طموحات الخليفة عبد الرحمن الناصر الذى حكم الأندلس من عام ثلاثمائة إلى عام خمسين وثلاثمائة للهجرة ، فقام ببناء مدينة جديدة على بعد حوالى عشرة كيلو مترات إلى الغرب من قرطبة أسماها مدينة الزهراء التى سوف نشير إليها فيما بعد .

أصبحت مدينة قرطبة أهم مدينة في الغرب الإسلامي ، يقصدها طلاب العلم من كل أنحاء الدنيا المعروفة آنذاك سواء من المسلمين أو غيرهم ، ولقد لخص الشاعر ما تتميز به قرطبة عن غيرها من بلاد العالم فقال :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثناتان والزهاء ثالثة والعلم أفضل شيء وهو رابعها

ولتلق نظرة سريعة على هذه المعالم الأساسية للمدينة :-

القنطرة ، والزهاء ، والمسجد الجامع

قنطرة قرطبة :

تقع مدينة قرطبة على نهر أسماه المسلمون نهر الوادي الكبير ، ومازال الاسم العربي باقياً إلى الآن في اللغة الأسبانية ، وهو يفصل بين جنوب الأندلس وشماله ، وكان عليه قنطرة متهدمة من بناء الرومان ، وكان المسلمون في حاجة ماسة إلى إعادة بنائها لتربط بين الشمال والجنوب فاستأذن السمع بن مالك الخولاني الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عام مائة للهجرة ، في بنائها ، على أن يستخدم في ذلك الحجارة من سور ، على أن يبني سور المدينة من الطوب اللبن ، فأذن له في ذلك فقام السمع ببنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ماعقد عليه جسر في معمر الأرض . واهتم المسلمون بهذه القنطرة ، وأولوها عناية كبيرة ، وأصبحت ذات أهمية كبرى في تاريخ الأندلس السياسي والفكري ، ولأنها كانت من الجمال والبهاء بحيث كانت منتزه أهل قرطبة ، ومدار خيال شعراء الأندلس أجمعين .

ولقد تهدم البناء الذى أقامه الأمير الأندلسى السمع بن مالك الخولانى بسبب السيول ، وفى عهد الأمير هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل ، والذى حكم الأندلس فى الفترة من ١٧٢ هـ إلى ١٨٠ هـ ، وكان محباً للعمارة ، وتشيد المباني ذات النفع العام ، فإنه نظرت فى إصلاح القنطرة وإعادة بنائها ، وأنفق فى هذا السبيل أموالاً عظيمة ، وأشرف بنفسه على الأعمال التى تجرى بها ، وكان يعطى العمال أجرتهم بيده ، وإن كان أهل قرطبة على عادتهم لا يرضون بالكثير من الأعمال ، فيذكر ابن وضاح أنه بعد أن أتم الأمير بناء القنطرة ، سأل يوماً أحد وزرائه عما يقوله أهل قرطبة فى القنطرة ، فذكر له أنهم يهيمون فيما بين بعضهم البعض أنه ما بناها إلا ليمضى عليها إلى صيده وقنصه ، فأقسم الأمير هشام ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة وأوفى بيمينه .

ومازالت القنطرة قائمة إلى يومنا هذا بجوار المسجد الجامع ، وما زالت منتزهاً لأهل قرطبة ، كما كانت فى عصورها الخوالى .

مدينة الزهراء :

بناها الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الناصر ، كى تحقق طموحاته وتتناسب مع مكانته ، بدأ الخليفة فى بناء المدينة فى سنة ٣٢٥ هـ ، وقد اشغل بها جيش من العمال والفنيين ، واستنفذت ثلث إيرادات الدولة لمد سبعة عشر عاماً ، وظل البناء بها حوالى أربعين عاماً .

أقام الناصر بالمدينة قصراً للخلافة من الصعب أن نجد الكلمات المناسبة لوصفه ، فكانت جدرانه مزينة برفائق الذهب والفضة ، ونقوشه

غاية فى الروعة والجمال ، به بركة من الزئبق لو انعكست عليها أشعة الشمس لأغشت أعين الحاضرين ، وبه قباب مذهبة ، يقال بأنها لم توجد لغيره من الملوك ، ويصف الإدريسي مدينة الزهراء بقوله : ومنها إلى مدينة قرطبة خمسة أميال ، وهى قائمة الذات بسورها ، ورسوم قصورها ، وهى فى ذاتها مدينة عظيمة ، مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازى أعلى الجزء الأوسط ، وسقف الجزء الأوسط يوازى أعلى الجزء الأسفل ، وكل ثلث منها له سور . فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط يساتين وروضات ، والجزء الثالث فيه الديار والجامع .

ويروى ابن عذارى وهو مؤرخ للمغرب والأندلس ، أن أعمدة الرخام فى الزهراء بلغت حوالى ٤٣١٣ سارية ، منها ١٠١٣ جلبت من قرطاجة فى تونس و ١٤٠ أهداها إليه ملك القسطنطينية ، وبقية الأعمدة جلبت من داخل الأندلس .

ولقد أورد « المقرئ » فى كتابه « نفح الطيب » أوصافاً عجيبة لتلك المدينة منها الحوض المنقوش بالذهب من الشام ، وقيل من القسطنطينية ، وفيه نقوش وتماثيل على صور الإنسان ، وليس له قيمة ، وقد أمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ، ونصب عليه اثنتى عشر تمثالاً ، كما اتخذ الخليفة مجلساً بهذا القصر تروى مصادر التاريخ أنه لم يتقدم مثله لأحد فى الجاهلية والإسلام ، وأنشده الرئيس أبو عثمان بن إدريس قصيدة طويلة منها :

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن مضرباً وقد مكنت لئدين والدنيا
 فيهاالجامع المعمور للعلم والتقى وبالزهرة الزهراء للملك والعبا
 وكما كان البناء في الزهراء غالياً وكلفاً ، وكما كانت المدينة جميلة
 ورائعة كان القاضي منذر بن سعيد البلوطي - قاضي الجماعة - من أكثر
 المعارضين لهذا الإنفاق .

وفي مصادرنا التاريخية الكثير من المواقف التي خالف فيها الناصر
 في إسرافه في هذا البناء في هذه المدينة حتى أنشده يوماً :

يا باني الزهراء مستغرقاً أوقاته فيها أما تهمل
 لله ما أحسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر : إذا هب عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتها مدامع
 الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل إن شاء الله تعالى ، فقال منذر : اللهم اشهد
 أنني بثت ما عندي ، ولم آل نصحاً .

ولقد صدق القاضي منذر - رحمه الله - فيما قال ، فإنها ذهبت بعد
 ذلك في الفتنة ، وقلب ما كان محنة ، حين هاجمها البربر في فترة الفتنة ،
 وقلبوا عاليها سافلها ، ولم يتركوا فيها عمراناً يذكر ، ووقف بها الشاعر
 السمسير متحسراً وأنشد بها هذه الأبيات :

وقفت بالزهراء مستعيراً معتبراً أنسب أشاتات
 فقلت : يا زهراء ألا فأرجعي قالت : وهل يرجع من باتا
 فلم أزل أبكي وأبكي بهما هيهات يغنى الدمع مبهاتا
 كأنما آثار من قد مضى نواله يندب أمواتا

لم تعد مدينة الزهراء إلى الحياة مرة أخرى ، بل اندثرت تماماً ، ولم يبق منها إلا بعض الأطلال الدارسة ، وعلى الرغم من أن الحكومة الأسبانية تحاول منذ أكثر من خمسين عاماً التنقيب لكشف آثار هذه المدينة ، ورغم كل الجهود المخلصة إلا أنها لم تتمكن من الكشف عن الكثير ، وإن ظهر في مكان المدينة الكثير من الآثار الخزفية والفخارية ، وبعض قواعد وأساسيات للمباني القديمة وما زال الأمل قائماً في الكشف عن الكثير من خبايا هذه المدينة الأندلسية الرائعة .

المسجد الجامع في قرطبة :

كانت مدينة قرطبة كما بينا من المدن التي فتحها المسلمون في حملتهم الأولى بقيادة طارق بن زياد ، وتختلف المصادر التاريخية في تسمية قائد الفرقة الإسلامية التي تولت الفتح فالغالبية منها تجعله مغيب الرومي وبعضها ينسب الفتح إلى طارق بن زياد نفسه .

وقد حرص المسلمون منذ اللحظات الأولى للفتح على تحويلها إلى مدينة إسلامية ، ومن ثم عمدوا إلى إنشاء المسجد الجامع في وسطها ، واقتضى الأمر إلى اتخاذ بناء قائم ، فشاركوا سكان المدينة كنيسة لهم ، فاقسموها معهم ، تركوا لهم نصف الكنيسة يزدون فيه صلواتهم ، واتخذ المسلمون النصف الآخر مسجداً تولى التابعي الجليل الصنعاني توجيه قبيلته ، وظل هذا الوضع قائماً طيلة عصر الولاة وحتى سنوات طويلة من حكم عبد الرحمن الداخل أيضاً .

ضاق المسجد القديم بمجموع المصلين ، وخاصة بعد أن انتشر الإسلام بين سكان المدينة ، وتزايدت أعداد القادمين من المشرق إلى

الأندلس ، فشرع الأمير عبد الرحمن الداخل فى بناء مسجد كبير لمواجهة التطور فى أعداد المسلمين بمدينة قرطبة ، ومن ثم بدأ فى مفاوضة نصارى قرطبة فى شراء نصف الكنيسة الذى بقى فى أيديهم منذ الفتح الإسلامى ، وضم أرضها إلى أرض المسجد القديم ، وقبل نصارى المدينة بيع ما بأيديهم على شرط السماح لهم ببناء كنيسة جديدة خارج أسوار المدينة وتم ذلك بالفعل عام ١٦٨ هـ. ومن ثم شرع الداخل فى هدم المبنى القديم بكامله ، ولم يحتفظ إلا بالمحراب الذى سبق أن وضعه التابعى الجليل الصنعانى حيث تم بعد ذلك وضعه فى المبنى الجديد ، وتم بناء بلاطات المسجد الجامع وأمواره خلال عامى ١٦٩ هـ - ١٧٠ هـ ، وجاء عمران المسجد متأثراً بصورة واضحة بنظام العمران فى بلاد الشام سواء فى زخرفته المعمارية أو فى نظام عقوده المزدوجة ونظام سقفه أو فى وضع المئذنة بالنسبة للجامع أو فى تصميم مجنياته حول الصحن ، كما يبدو التشابه واضحاً فى عقود جامع قرطبة المتعامدة على جدار القبلة بنظائرها فى المسجد الأقصى وما لا شك فيه أن الأمير الداخل قد استعان بعرفاء وعمال سوريين فى هذا البناء .

لم يدخر عبد الرحمن وسعاً فى أن يأتى المسجد على صورة طيبة ، حتى أنفق على بنائه فى ذلك العصر ما ينيف على ثمانين ألف دينار ، يقول عنه دحية بن محمد البلوى قصيدة طويلة :

وأنفق فى ذات الإله ووجهه ثمانين ألفاً من لجين وعسجد
توزعها فى مسجد أسه التقى ومنهجه دين النبى محمد
ترى الذهب النارى فوق سموكه يلوح كبرق العارض المتوقد

ومع ذلك لم يكمل عبد الرحمن الداخل بناء المسجد الجامع وأكمّله من بعده ابنه هشام الرضا والذي بنى له أول مئذنة .

تتابع أمراء بنى أمية وخلفاؤهم فى الاهتمام بالمسجد والعمل على زيادته وتوسعه وكان أولهم الأمير عبد الرحمن الأوسط بزيادة المسجد بلاطين جانبين فى سنة ٢١٨ هـ ، وسع بهما بيت الصلاة القديم بحيث أصبح مجموع بلاطات المسجد أحد عشر بلاطاً ثم مد هذه البلاطات جميعاً من جهة القبلة وذلك عام ٢٣٤ هـ ، وبنى جدرانها الخارجية وجعلها من الركائز الضخمة التى أكسبت الجامع مظهر القلاع ، ويعطو الجدران شرفات مثلثة مسننة ومتدرجة تقوم على إفريز منبعج يدور بأعلى الجدران كلها ؛ وجعله يشتمل على تسعة أبواب : ثلاثة فى صحنه غرباً وشرقاً وشمالاً ، وأربعة فى بلاطاته اثنان شرقيان واثنان غربيان : وفى مقاصير النساء من السقاف بابان . ولقد ابتهج الناس كثيراً بتوسعات عبد الرحمن الأوسط فيعبر عن ذلك الشاعر ابن المثنى :

بنيت لله خير بيت	يخرس عن وصفه الأنام
حج إليه من كل أوب	كأنه المسجد الحرام
كأن محرابه إذا ما	حلف به الركن والمقام

وقال آخر :

ينسى مسجداً لله اسم يك مثله	ولا مثله لله فى الأرض مسجد
سوى ما لبثتى الرحمن والمسجد الذى	يساه نبي المسلمين محمداً
له عمد حمر وخضر كأنهما	الروح يواقيت بها وزرجدا

توفي الأمير عبد الرحمن الأوسط دون أن يستكمل تنميق زيادته في الجامع وزخرفتها ، فأتىها ولده الأمير محمد بن عبد الرحمن في سنة ٢٤١ هـ ، فأتقن طرز الجامع وتمق نقوشه ، واستوعب زخارفه وأوثق أبوابه ، وجدد البنية الأولى لجده عبد الرحمن الداخل . قام الأمير محمد في عام ٢٥٠ هـ بإقامة المقصورة في المسجد ، ولما كمل العمل ، دخل الأمير إلى الجامع فسر بما قام به وصلى لله شكراً على ذلك ويقول مؤمن بن سعيد الشاعر في قصيد طويلة له بهذه المناسبة :

بنى مسجداً لم يبق في الأرض مثله . وصلى به شكراً لذى العرش راجعاً

فتعزى لمن عان الأمير محمد إذا دعا فيه إلى الله شاكراً

ولم ينس الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ ، نصيبه في العمل بالمسجد فأنشأ المايط الموصل من المسجد إلى قصر الخلافة ، أما الأمير عبد الرحمن الناصر ، فقد زاد في المسجد ، وجدد مئذنته ، فيذكر ابن عسار أن الناصر : زاد في المسجد الجامع بقرطبة زيادته الكبيرة المتصلة بزيادة أبيه الحكم من بعده ، فيها القيو الكبير الذي يصطف المؤتمنون أمامه يوم الجمعة ، وهو من أعجب البنيان .

أما أجمن وأروع الزيادات في المسجد الجامع فقد قام بها الخليفة الحكم المستنصر بالله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر والذي حكم من ٣٥٠ هـ - ٣٦٦ هـ ، فقد زاد في المسجد زيادات كبيرة ، ابتنى المحراب الثالث ، واستغرق بناؤه أربعة أعوام وعملت له قبة فخمة ، زخرفت بفسيفساء رائعة ، واستقدم الحكم من قسطنطينية خبيراً بأعمال الفسيفساء ،

وأرسل له قيصر منها قدراً كبيراً ، وأنشأ مقصورة جديدة بها قبة على الطراز البيزنطى ، وسجل بناء القاعدة المشبكة لهذه القبة فى نقش كتابى يغطى الطرة الكبرى التى تحيط بعقد المحراب يحتوى على آيات من كتاب الله الكريم ، وبيانات عن قام بهذه الأعمال .

وفى سنة ٣٥٥ هـ أمر الحكم بوضع المنبر القديم إلى جانب المحراب ، فظل يؤدى وظيفته إلى أن تم صنع المنبر الجديد فى مدة لا تقل عن سبعة سنوات ، وكان خشبه من الساج والأبنوس وعود القافلى ، كما ابتنى إلى جانب المسجد دار للصدقة ، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد ، كما أقام ثلاثة مكاتب لتعليم أبناء اليتامى مجاناً ، وفى ذلك يقول الشاعر :

وساحة المسجد الأعلى مكنة مكاتباً لليتامى فى نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم لنادتك يا خير تاليها وراعيها

وإذا كانت زيادة الحكم المستنصر بالله هى أروع وأجمل الزيادات على الإطلاق ، ومازالت معالمها باقية إلى اليوم ناطقة بما تتمتع به من حسن وجمال ، فإن أوسع الزيادات بالمسجد الجامع قد تمت على عهد المنصور محمد بن أبى عامر حاجب الأندلس على أيام هشام المؤيد بن الخليفة الحكم المستنصر بالله ، والذى حكم من ٣٦٦ هـ - ٣٩٩ هـ أى الثلث الأخير من القرن الرابع الهجرى ، فقد شرع المنصور فى هذه الزيادة فى سنة ٣٧٧ هـ من الجهة الشرقية ، فاشترى ما كان بها من دور وعوض أصحابها تعويضاً مجزياً ، واستغرقت هذه الزيادة عامين ونصف العام ، وكان المنصور بن أبى عامر يعمل بنفسه ، كما استخدم الأسرى النصارى

فى البناء ، وجعل من نواقيس النصرارى التى غنمها من معركته بشنت يعقوب SAN TIAGO ثريات نصوىء هذه الزيادة كذلك استخدم أبواب كنيسة شنت يعقوب ، وأدت زيادة المنصور مشابهة لزيادة الحكم المستنصر بالله ووصل المسجد بذلك إلى نهاية إتساعه وقمة بنائه ولم تزد فيه بعد ذلك أية زيادات ، وبلغ المسجد بذلك الغاية . نعم فقد لبث الأمراء والخلفاء عصوراً يتعاقبون فى توسيعه وتجميله حتى غدا برفقته الشايعة التى وصلت إلى أكثر من ٢٤ ألفاً وثلاثمائة متراً مربعاً ، وسواريه وأعمدته التى تجاوزت الألف والأربعمائة - على ما يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان - وأبوابه البرونزية العديدة ، ومحاريبه الفخمة ، وزخارفه البديعة ، ومذنته الشاهقة من أعظم المساجد الجامعة فى العالم الإسلامى أن لم يكن أعظمها على الإطلاق .

ولقد كان إعجاب المسلمين بهذا المسجد كبيراً فى كل وقت وفى كل مكان حتى ربطوا به بعض الأساطير ومن ذلك ما يقوله المقرئ فى كتابه القيم « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب » قد شاع على ألسنة الجم الفقير من الناس فى هذه البلاد الشرقية وغيرها أن : فى جاع قرطبة ثلثمائة ونحو ستين طاقاً على عدد أيام السنة ، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود ، وغير ذلك من أساطير أوردها فى الجزء الأول ص ٥٢٠ .

لكنه ينقل لنا بعيداً عن الأساطير والأشعار ، وما ينقله عن ثقافات المؤرخين إنه : الجامع الذى ليس فى معمر الأرض مثله ، وطوله مائة ذراع فى عرض ثمانية ، وفيه من السورارى الكبار ألف سارية ، وفى مائة

وثلاث عشر ثريا للوقود أكبرها ألف مصباح ، وفيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر أحد على وصفه ، ويقبلته صناعات تدهش العقول ، وعلى فرجة المحراب سبع قسي قائمة على عمد طول كل منها قوس القامة قد تحير الروم والمسلمون في صنعها ، وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة : أثنان أخضران ، وأثنان لا زورديان ليس لها قيمة لنقاستها ، وبه منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه ، ولا مثله في صنعه .

سقطت قرطبة في أيدي النصارى عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م ، وتم تحويل المسجد الجامع إلى كاتدرائية كبرى للمدينة أطلق عليها اسم كنيسة القديسة مارية الكبرى Santa Maria ، وحاول القساوسة طمس معالمه الإسلامية وذلك بإقامة الكثير من المصلبات المسيحية في جوانبه ، كما دفن بعض ملوك قشتالة ، ومنهم الملك فرناندو الرابع المتوفى في جوان ١٣١٢ م ، والأمير ألفونسو الحادي عشر الذي قتل أثناء حصار النصارى لجبل طارق ١٣٥٠ م .

ورغم كثرة المصلبات الكنيسة ، والهدم ، والتشويه منذ سقوط المدينة وإلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي ، إلا أن ذلك كله لم يغير من صورة المسجد ، ولم يقضى على معالمه الإسلامية ولذلك قام الأسقف القرطبي أنييجو مانريكى فى عام ١٤٨٩ م باستئذان ملك اسبانيا كارلوس الخامس فى بناء كاتدرائية مسيحية وسط المسجد الجامع فقام بهدم عدة عقود وأعمدة من وسط الجامع مقيماً مكانها كنيسة على الطراز القوطى ، والتي جاءت فى شكلها وهندستها متنافرة تماماً مع شكل هندسة باقى المسجد . ومن الجدير بالذكر أن الامبراطور الاسبانى الذى أعطى الإذن

بهذا البناء ، حينما جاء إلى قرطبة لزيارتها وافتتاح هذا الهيكل الكبير ، فقد أسف أشد الأسف على مآدم من جمال المسجد ، وتدم على ما صرح به واحتج على إقامة الهيكل على هذا النحو في وسط هذا الفراغ الهائل الذي تتجلى فيه عظمة الفن الإسلامى مما جعل ما قام به الأسبان باهتاً وغير جدير بالمقارنة وقال عبارته التى نقلها عنه جميع المؤرخين الأسبان : لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه فى أى مكان آخر ، لكنكم قضيتم بذلك على ما كان أثراً وحيداً فى العالم .

وفى ١٥٩٣م أزيلت منارة المسجد الجامع ، وأقيم فوق أنقاضها برج الأجراس الحالى ولقد ظل العمل فى تشويه هذا المسجد قروناً طويلاً لكنه لم ينجح فى تشويه مسورته كمسجد ، وعاد الفنانون الأسبان والأثريون يحاولون ترميم هذا الأثر ، وتهتم به الحكومات الأسبانية فى العصر الحديث اهتماماً خاصاً ، وأصبح أثراً قومياً مسجلاً فى البونسكو ، ولقد سمح الأسبان للمسلمين بأداء صلاة جامعة فى هذا المسجد عام ١٩٧٧م حين عقد فى مدينة قرطبة المؤتمر الثانى لجمعية الصداقة الإسلامية المسيحية ، والذي حضرته وفود من جميع بلاد العالم الإسلامى ، وأتذكر أنه حين أذيع الخبر بالسماح بصلاة الجمعة فى المسجد الجامع بقرطبة فإن الآلاف من أنحاء العالم الإسلامى ومن المسلمين المقيمين فى أسبانيا قد تسارعوا للمشاركة فى هذه الصلاة ، مما أثار توجساً لدى السلطات الأسبانية حيال المشروع الذى كان قد قدمه حين ذاك جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز والخاص بإمكانية إعادة المسجد إلى مسوره الأصلية ، وعازلت احتفظ فى مكتبتها بتقايرة بعض تعاريف الصحف الأسبانية على هذا المشروع .

وإذا كانت هذه الآثار المادية تدل على ما كانت عليه المدينة من الفخامة والثراء والعظمة والجمال ، إلا أن المدينة في جانبها الفكري والأدبي ، والعلمي قد فاقت كل تصور ، وأصبحت « عروس الغرب » يقصدها العلماء والطلاب من العالمين الإسلامى والنصرانى على السواء ، ومن الصعب الإشارة إلى قمم هذه المدينة من المحدثين والفقهاء من أمثال بقى بن مخلد ، ابن عبد البر ، أو من الأدياء والشعراء من أمثال ابن عبد ربه وابن زيدون ، أو من المؤرخين أمثال ابن القوطية وابن حيان ، أو الجغرافيين كالبرى أو النحويين كأبى على القالى وأبو بكر الزبيدى ممن تحفل بأسمائهم أطروحات الماجستير والدكتوراه المكتوبة حول الحياة الفكرية والعلمية في هذه المدينة الإسلامية العظيمة ، وبلخص الحجارى وضع المدينة في هذا المجال في الكلمات الرائعة التالية :

« كانت منتهى الغاية ، ومركز الراية ، وأم القرى ، وقارة أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، ونبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام ، وحضرة الإمام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض ، وأعلام العصر ، وفرسان النظم النثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب في تبرز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم ، أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب .

ويقول الشاعر أبو صخر القرطبي يمدح أهلها وينعاهم في ذات الوقت:
ديار عليها من بشاشة أهلها بقايا تسر النفس أنساً ومنظراً
ربوع كساها المزن من خلع الحيا بروداً وحلاها من النور جوهرأ
تسرك طموراً ثم تشجيكاً تارة فترتاح تأنياً وتشجى تذكرأ
وما زالت مدينة قرطبة وأثارها الإسلامية شاهدة عظيمة على
تاريخها ومجدها العريقين .

د. / محمد عبد الحميد عيسى

الحكم المستنصر بالله خليفة عالم خلد التاريخ

حين تدب أقدام السالكين على دروب مدينة قرطبة فإن العين لا تخطيء أبداً أنها تمضى بين جنبات مدينة اسلامية عريقة كانت وما زالت وستظل عنواناً على مجد الحضارة الاسلامية وروعها وجمالها وعظمتها التي تجلت على الأرض الأندلسية .

لقد ظلل الإسلام هذه الأرض الأوربية فأنطقها بروائع الشواهد الحضارية حتى جاءت فريدة في نوعها ، متميزة في مجالها .

ولقد كانت خطواتنا هي التي تدب ، ومعنا وفود كثيرة العدد من كافة بلاد العالم الإسلامي والنصراني ، كان ذلك في شهر مارس من عام ١٩٧٧م حيث عقد مؤتمر الصداقة الإسلامية المسيحية ، على أرض تلك المدينة الخالدة ، يقودنا عبر دروبها أستاذ أسباني كبير هو المستشرق خمينيث أو كانيا ، وكان الرجل مبهوراً ، متقطع الأنفاس ، وهو يقودنا إلى حديقة قصر الخلافة في قرطبة ، ويقف بنا أمام تمثال نصفي لشيخ عربي مهيب جل الشيب لحيته ، وبدت على تقاسيم وجهه الهيبة والجلال وتطل من عينيه أضواء حادة ثابتة ، توحى بما كان لصاحبها من عزيمة ومضاء .

هتف خمينيث قائلاً : هذا هو الخليفة القرطبي الذي جمع وقرأ كتاب ! نعم أربعمائة ألف كتاب ، هذا هو الخليفة العظيم الحكم المستنصر بالله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله الأموي ، الأندلسي .

وتطلعنا الى الكلمات المنحوتة على قاعدة التمثال لنقرأ ما يلي :

من بلدية قرطبة ، والجامعات الإسلامية الى الخليفة العظيم ، الحكم المستنصر بالله ، في ذكرى مرور ألف عام وفاته ، وفاء وتقدير .

ولد الخليفة الحكم في غرة رجب من عام ٣٠٢ هـ من أم ولد تدعى مرجان ، ورباه والده تربية ممتازة فنشأ محباً للعلم ، موقراً للعلماء ، مشغولاً بجميع الكتب ، ورغم قيامه على أيام والده بعظيم المهمات ، وإشرافه على كثير من الأعمال ، ونياسته عن والده حين خروجه في الغزوات ، فإن أهم ما يذكر للحكم قيامه بما يمكن أن نطلق عليه « وزير الدولة للعلم والثقافة » فقد ندبه والده عبد الرحمن الناصر للإهتمام بالعلم والعلماء في دولته ، ويقول عنه المؤرخ الطليطلي الشهير صاعد الطبقى المتوفى ٤٦٦ هـ بأنه « لما مضى صدر من المائة الرابعة ، انندبه الأمير الحكم المستنصر بالله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وذلك في أيام أبيه ، إلى العناية بالعلوم ، وإلى إثارة أهلها . واستجلب من بغداد ، ومن مصر ، وغيرهما من ديار المشرق ، عيون التأليف الجليلة ، والمصنفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها في بقية أيام أبيه ، ثم في مدة ملكه من بعده ، ما كاد يضاهي ما جمعته ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة .

ونجح الحكم في مهمته نجاحاً كبيراً ، وأصبح في دولة عبد الرحمن الناصر ، السند الأكبر لكل العلماء ، وقد تهيأ لذلك لفرط محبته للعلم ، وبعد همته في اكتساب الفضائل ، وسمو نفسه الى التشبه بأهل الحكمة من الملوك ، وكان من أهم جهود الحكم في هذا المجال :-

أنه فتح باب الأندلس على مصراعيه لاستقبال العلماء المشاركة، وكرامهم واعطاء الفرصة لهم للتدريس في مساجد الأندلس عامة ، وقرطبة خاصة ، ومن الواضح حرصه على اختيار عينات رائعة من العلماء والمعلمين أمكنها أن تملأ جوانب الأندلس علماً وتعليماً ، ومن أبرز من قدم في هذه الفترة العالم الأشهر ، أبو علي القالى البغدادي ، المتوفى في ٣٥٦هـ وكان شخصية علمية باهرة ، ترك في الأندلس مدرسة لغوية رائعة ، ومن طلابه الخليفة الحكم نفسه ، وأبو بكر الزبيدي ، وعشرات غيرهما ، ولقد حرص الحكم على استقبال الرجل عند مجيئه الى الأندلس ، وندب لذلك أمير الجزيرة الخضراء وكبار أعيانها . ومنهم أيضاً العالم المصري أحمد بن أبي عبد الرحمن القرشي ، وكان فقيه أهل مصر في زمانه ، وقدم الأندلس ، وأكرم هناك .

بوتيع الخليفة الحكم المستنصر بالله في اليوم التالي لوفاة والده في الثالث من رمضان سنة ٣٥٠ هـ ، وكان في ذلك الوقت رجلاً واسع الخبرة ، عميق التجربة ، متمرساً على الإدارة والحكم ، واستهل عهده بالنظر في توسعة المسجد الجامع « جامعة قرطبة » فضاعف حجمه ، وبنى له محراباً رائعاً ، ما زال حتى يومنا هذا تحفة معمارية نادرة المثال ، يقف أمامها السائحون في خشوع وانبهار.

كما قام الحكم بردع ممالك نصارى شمال الأندلس ، والتي تصورت بعد وفاة الناصر ، أن الخليفة الجديد لا يعنيه سوى القراءة ، وليس له في أمور الحرب والسياسة ، ولكنه أثبت جدارته وأهليته لصيانة مملكته ، وحرصه على هيبتها وكرامتها ، فخرج بنفسه على رأس قواته واجتاح

بلادهم ، وخرب قلاعهم ، وعاد منصور الراية ، شامخ النفس مما دفع
بهذه الممالك النصرانية الى ارسال وفودها وسفاراتها لطلب الصلح ،
والإذعان بالطاعة للخليفة الأندلسى وتفيض الروايات بمظاهر العزة
والفخامة والسلطنة التى استقبل بها هؤلاء السفراء فى قرطبة عامة ، وفى
مدينة الزهراء خاصة .

كما تمكن الحكم من فرض سيطرة الخلافة الأموية فى الأندلس على
بلاد المغرب ، وزاحم الفاطميين حتى أجبرهم على الرحيل الى مصر ،
وغدت بلاد الأندلس على عهده فى قمة مجدها وعظمتها .

ويجمع المؤرخون الى امتياز عصر الحكم بظاهرة من ألمع الظواهر
فى تاريخ الدولة الأندلسية ، ازدهار العلوم والآداب أعظم الإزدهار ، وانشاء
المكتبة الأموية العظيمة ، التى كانت بضخامتها ، وتنوع محتوياتها من
أعظم مكتبات عصرها .

يعترف المستشرقون بالمكانة العلمية الرائعة للخليفة الحكم ، فيقول
ليفى بروفنسال ، المستشرق الفرنسى المعروف : « علينا أن نبرز فى المقام
الأول ، ذلك الاسم الخالد للخليفة الحكم الثانى ، عالماً لا غبار عليه ، راعياً
مهيباً عظيماً للآداب والعلوم ، صديقاً كريماً للفنون ، ويقول عنه المستشرق
الأسباني غونثاليث بالنسيا بأنه فى تسامحه مع العلماء ، لم يقف عند
حدود معينة ، مما دفعهم للإلتفاف حوله ، فقام بحمايتهم وتشجيعهم ،
حتى الفلاسفة منهم وأعطاهم الحرية الكاملة ليقوم الرياضيون ، والفلكيون
بالتدريس علناً لطلابهم ، كما تصفه دائرة المعارف الإسلامية بأنه كان
« راعياً للفنون والعلوم والتربية » .

ألف غدا مسجد قرطبة على عهد المستنصر بالله جاسعة حقيقية يؤمها طلاب العلم من الشرق والغرب ، وتعلم فيه كثير من الأوربيين ومنهم البابا سلفستور الثاني ، وقد عهد الحكم إلى أخيه المنذر بالإشراف على جامعة قرطبة وأسانتها ، دون أن يهمل هو شخصياً رعاية هذا المكان ، بل كان شديد الاهتمام به ، حتى وصل عدد طلابه وزواره إلى الآلاف .

ومما يذكر للخليفة المستنصر ، محبته واحترامه للعلماء ومكانتهم ، ورفع قدرهم عند الناس وعند الطلبة ، ولقد وصل الفقهاء والمعلمون على شهادته إلى درجة عالية من المهابة ، حتى أنه إذا طلب فلا يرد له طلب ، ويكفى للدلالة على ذلك ، أن الخليفة أرسل في استدعاء الفقيه أبي ابراهيم لمسألة ما ، فلا يذهب إليه الفقيه حتى يكمل درسه متأنياً على عادته في كل يوم ، ولم يجد من الخليفة إلا الثناء والتقدير .

جانب آخر من الجوانب المضيئة في حياة الخليفة الحكم اهتمامه بتعليم الأطفال ، فأقام في مدينة قرطبة كثيراً من مكاتب تعليمهم وخصها أولاً لأبناء الضعفاء والفقراء ، وجعل لمعلميها أوقافاً من دخل حوانيت السراجين ، لكي يتقاضوا منها مرتباتهم ، ويثنى المؤرخون على هذه الخطوة الفريدة في عصرها بقولهم : ومن مستحسنات الحكم وطييبات أعماله ، اتخاذ المؤدبين يعلمون أولاً الضعفاء والمساكين القرآن حوالى المسجد الجامع ، وبكل رضى من أرياض قرطبة ، وأجرى عليهم المرتبات ، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ، وفي هذه المناسبة يقول الشاعر ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة مكاتباً لليتامى من نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك يا خير ناليها وداعيا

نصل الآن الى جانب آخر من اهتمامات الخليفة الحكم المستنصر لم يدانيه فيه أحد قبله ، وربما لم يلحق به أحد من بعده ، ألا وهو الاهتمام بالكتب والمؤلفات ، ويمكن ايجاز جهود الحكم للحصول على المؤلفات العلمية فيما يلى :-

أ- تشجيع تأليف الكتب ، والاعتناء به ، والإثابة عليه ، واکرام العلماء العاملين فى هذا المجال من داخل الأندلس أو من بقية انحاء العالم الإسلامى ، ويكفى أنه وجه إلى أبى الفرج الأصفهانى فى بغداد ألف دينار ذهباً لكى يوجه إليه نسخة من كتاب الأغانى ، ولقد أرسل المؤلف إلى الحكم نسخة حسنة منقحة ، قبل أن يحصل عليها أحد فى العراق ، أو بنسخه أحد منهم ، كما قام المستنصر بإرسال أموال وهدايا إلى كل من القاضى أبى بكر الأبهري المالكى ليتسلم منه شرحه لمختصر ابن عبد الحكم ، ولمحمد بن القاسم بن شعبان بمصر ومحمد بن يوسف الوراق الذى صنف له كتاباً ضخماً فى « مسائلك أفريقية وممالكها » وفى داخل الأندلس ، كان نشاط الحكم فى التشجيع على التأليف كبيراً جداً وعمد إلى وسائل متعددة لحث العلماء على التأليف منها الإعفاء من الغزو فى مقابل تأليف كتاب كما حدث مع الفقيه عبد الله بن مغيث ، بل وسمح للعلماء الراغبين فى التفرغ للتأليف بالاقامة فى دار الملك لكى لا يشغلهم عن عملهم ، كما

قدم الحكم الجوائز الكبرى ، والهدايا ، بل والوظائف الكبرى كما هو الحال مع الفقيه أحمد من عبيد الملك الأشبيلي ، وأحمد بن فرج الجياني الذي ألف للحكم كتاب : الحقائق ، عارض فيه كتاب « الزهرة » لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني .

كان شغف الحكم الأول جمع الكتب ، ولهذا أسماء المستشرق الأسباني بمجنون قرطبة ، فقد استطاع أن يجمع في مكتبة قصره بقرطبة أربع مائة ألف مجلد ، في زمن لم يعرف الطباعة ولا التصوير ، ولا يختلف في صحة هذا الرقم مؤرخان ، وتؤكد المصادر جميعها أن فهارس هذه المكتبة قد وصلت إلى أربعة وأربعين مجلداً في كل واحد منها خمسين ورقة فإذا عرفنا - أن السلطان سوف يجلب إليه ما ينفق فيه ، لأمعجبنا إلى تحول القرطبيين إلى عشق الكتب وجمعها ، والاعتناء بنسخها وتجليدها حتى أنه كان في الريف الغربي من المدينة مائة وسبعون امرأة يكسبن رزقهن من نسخ الكتب .

وجه الحكم رسلاً إلى بلاد المشرق ، وخاصة بغداد ودمشق والفسطاط لشراء الكتب ، بإذلاً في سبيلها أحسن الأثمان ، ونفق ذلك لديه ، فحملت من كل جهة إليه ، كما استخدم الحكم عدداً كبيراً من النساخ في منزله يقولون نسخ الكتب النادرة ، بل إنه أقام صناعة متكاملة في داره تضم كما يقول ابن خلدون الحذاق في صناعة النسخ ، والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله .

تحولت بلاد الأندلس عامة ، وقرطبة خاصة إلى سوق كبيرة للكتب وإلى سوق كبيرة للأدب والعلم ، فأما المؤلفون من جميع الأصقاع والبقاع

حاملين انتاجهم ، فاذا مثلوا فيها ، اشترى منهم الخليفة هذه المنتجات بأثمان حرية بتشجيعهم ، وتحملهم على العودة بأضعاف ما كان معهم ، ويرى أستاذنا د. غلاب : بأن التاريخ يحدثنا أن الحكم الثانى كان له فضل التفوق فى جمع هذه الثروة العظيمة ، التى كان لها فيما بعد أثر بارز فى بناء صرح المدينة الانسانية ، بما أحدثته من انقلاب فى الأفكار الأوربية فى أواخر القرون الوسطى ، مما كان أحد الأسباب القوية والمباشرة للنهضة الأوربية .

هل صدق وصف المستشرق الأسباني أو كانيا ؟ أم أفضل منه ما جاء عند المؤرخ العظيم بن الأبار الأندلسى فى حق هذا الخليفة العظيم يقول ابن الأبار : كان مع هذا كثير التهم بكتبه ، والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها ، ولما تجد له كتابا كان فى خزائنه الا وله فيه قراءة ونظر ، من أى فن كان من فنون العلم ، يقرؤه ، ويكتب عليه بخطه ، إما فى أوله أفى آخره ، أو فى تضاعيفه ، وفى نسب مؤلفه ووفاته ، والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن ، وكان موثقاً به مأموناً عليه ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلس وأئمتهم ، ينقلونه من خطه ، ويحاضرون به .

ونجدنا مبهورين حين يؤكد « الحميدى الأندلسى » أنه رأى بنفسه خط الحكم المستنصر على كتاب ، العقد الفريد « لابن عبد ربه ، حيث قيد الحكم تاريخ مولد الرجل ، وتاريخ وفاته ، ويقول : هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر ، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا « لأنه كان عالماً ثبّتاً ،

وقال عنه القاضي عياض رحمه الله عليه : وكان الحكم ممن طالع الكتب ، ونقر عن أخبار الرجال تنقيراً لم يبلغ شأوه كثير من أهل العلم .
تلك صورة موجزة عن الخليفة الأندلس الكبير الحكم المستنصر بالله الذي انتقل الى رحاب ربه عام ٣٦٦ هـ أى منذ ألف وثلاث وخمسين عاماً من هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

حصراء غرناطة

وتطورها

بعد ضياع الاندلس

الحمراء تغير جلدها *

تعمل هذه المقالة بين جوانحي منذ سنوات طوال أناقشها في فكري، وأحاورها في خيالي يوماً بعد يوم ، لكنني أشفق حين امسك القلم لتسجيل خواطري عنها، دون أن أدري لماذا التردد ، ودون أن أنقدم لصياغة ما في نفسي من أفكار .

ولعل السبب في ذلك ، هو خشيتي من صدمة يحسها القارئ العربي مثل تلك الصدمة التي احسنا بها ذات ليلة في مدريد ، حين سعينا ، مجموعة من شباب الدارسين العرب هناك وبعض الاساتذة ورجال السلك السياسي ، لنستمع الى عميد المستشرقين الاسبان واشهر علمائهم الدكتور امبليو غارثيا غوميث حين القى محاضرته الثالثة والاخيرة في مؤسسة « خوان مارش » عن غرناطة خلال عام ١٩٧٩ م .

كانت القاعات - تلك الليلة - غاصة بالعلماء والادباء والمثقفين من الكهول والشبان، بصورة لم ارها في حياتي في محاضرة أخرى ، حتى ان المحاضرة كانت تنقل الى الجمهور عبر شاشات التلفزيون في دائرة مغلقة ، وكان الحشد كبيراً بما لا يمكن وصفه او تقديره .

وللدكتور غارثيا غوميث أسلوبه الشعري المؤثر الذي ينفذ الى القلوب والمسامع ويزداد التأثير وقعاً على القلوب حين يتناول الصراع غير المتكافئ بين العرب والاسبان حتى يستسلم المسلمون في غرناطة ، ويدخل الاسبان قصور الحمراء دخول الظافرين المنتصرين، وبخيم الصمت على الجميع وهو يتحدث بعد ذلك عن الحمراء وجمالها وروعة قصورها،

^١ نشرت بمجلة النادي الأدبي بليبيا .

الى ان يصل الى القول بأن الفصل في بقاء ما نراه الآن من عظمة تلك القصور ، انما يرجع الى تلك الانامل الاسبانية التي تعمل في صمت وبراعة على استبدال الاجزاء المنهارة وترميمها ، واعادتها الى صورتها الاصلية بمهارة فائقة وفن عريق .

واستطرد في الحديث ، حتى خلنا ان الحمراء غير الحمراء وان التاريخ غير التاريخ .

أقول ليلتها كانت غمتنا كبيرة وآلامنا النفسية أشد وقعاً ، ليس فقط من أجل تلك الكلمات ، وإنما لرنه الفرع والخيلاء التي كان يتحدث بها الاسباني عن غرناطة ، تلك المدينة العربية خاتمة التاريخ الاندلسي ، وكيف انها لم تكن أكثر من مجرد مدينة افريقية حكم عليها بالفناء ، دون ان يكون في امكانها رد القضاء . ولم يكن الامر كذلك في حقيقة الامر ولنلق نظرة سريعة .

غرناطة تاريخها :

هي « رمانة التاريخ » مدينة تعاقب على وجودها الرومان والقوط وتتمتع بموقع ممتاز في واد عميق شمال غرب جبال الثلج ، كما تطل على نهر شنيل المتفرع من نهر الوادي الكبير ، كما يخترقها فرع آخر من هذا النهر يسمى حدره وكان النهران يفيضان بالماء ، ومن ثم أيعت صفاقهما بالخضرة ، وغصت بالحدائق والبساتين ، كما انها تشرف من جنوبها الغربي على بسيط شاسع أخضر ، يعرف في التاريخ باسم « مرج غرناطة » .

عاشت غرناطة فى العصر الاسلامى أمجد ايامها ، وكانت اقليماً
يانعاً أحبه العرب والمسلمون وأقاموا به حتى أصبحت على ايامهم جنة
الدنيا تغص بالغياض والبساتين الياينة ، التى بلغت ، الى حد قول مؤرخ
غرناطة خالد الصيت ذى الوزارتين لسان الدين بن الخطيب حوالى المائة
، بالاضافة الى مايقرب من ثلثمائة قرية عامرة تابعة لها وقال ابن
الخطيب يصف جمالها :

بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض غداره
وكأنما واديه معصم عادة ومن الجسور المحكمات سواره

لعبت غرناطة دوراً هاماً فى التاريخ الاندلسى ، وقامت بها احدى
ممالك الطوائف بعد سقوط الخلافة الاندلسية وحكمتها أسرة بنى زيرى
البربرية ، وكانت أولى ممالك الاندلس خضوعاً للمرابطين وترك لنا أميرها
عيد الله واحدة من أجمل ما كتب فى الترجمة الذاتية، حيث ترك لنا
مذكراته ، دمجاً حياته الشخصية وتاريخ غرناطة بأسلوب جميل .

وخضعت غرناطة للمرابطين ، وللموحدين من بعدهم ، وعاشت
اياماً خلوة تاريخاً وحضارة فى ظل هاتين الاسرتين .

ولم يكن أحد يدري ان التاريخ يحتفظ لغرناطة بدور بالغ الاهمية ،
او أنها سوف تسطر على جبين القدر اروع صفحات البطولة ، وامجد
صفحات الخلود .

لم يكن أحد يدري أو يستطيع ان يجمع فى افكاره فى تلك الآونة من
النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادى ، وقلاع الاندلس الهامة

ومدنه العريقة تتهاوى واحدة بعد الاخرى لتسقط في قبضة حركة الاسترداد الاسبانية التى بلغت أوجها وقمتها منذ بدايات القرن الثالث عشر الميلادى ، حين تمكنت من الانتصار الحاسم على قوات الموحدين فى معركة العقاب التى وقعت فى عام ١٢١٢م وكانت ضربة شديدة لسلطان الموحدين ولأسبانيا الاسلامية، وعاد شبح الفناء يخيم على الافق ويلوح قوياً منذراً ، حتى سرى ذلك فى كتابات العصر وشعره وتهافت كما قلت قلاع الاندلس ، ومدنه الواحدة بعد الاخرى ، فسقطت جزر البليار عام ١٢٢٩م وقرطبة ١٢٣٦م وبلنسية ١٢٣٨م ، ودانية ١٢٤٤م وأوريبوله ١٢٤٥م ، وشاطبة ١٢٤٦م وجيان ١٢٤٦م وأشبيلية ١٢٤٨م ، وفى نفس الوقت تساقطت مدن غرب الاندلس الواحدة بعد الاخرى ، ولم يأت منتصف هذا القرن حتى كانت ولايات الاندلس الشرقية والوسطى كلها ، وقد سقطت فى يد اسبانيا النصرانية ، ولم يبق من تراث الدولة الاسلامية فى الاندلس سوى بضع ولايات صغيرة فى طرف اسبانيا الجنوبية .

نعم ، لم يكن أحد يستطيع ان يجمع فى افكاره فى هذا الوقت الى ابعد من هذا المصير القاسى ، وتركز كل التفكير فى شبح الفناء الذى يطل بوجهه الكالح على الامة الاسلامية هناك ، وطاف بالاندلسيين ، ربح التوجس والخوف والفرع وعاد النذير يهيب بالمسلمين أن يغادروا ذلك الوطن الخطر .

أكرر القول لم يكن أحد يدري بأن التاريخ قد احتفظ لغرناطة بدور جديد حيث تنهض هذه المدينة من وسط الركाम والاشلاء لترفع راية خفاقة يلجأ اليها الهاربون والشاردون ، وتصبح ملاذاً وحصناً لمواجهة هذا السقوط

المربع، وتنجح غرناطة في ان تمد في عمر دولة الاسلام والمسلمين على ارض اسبانيا لأكثر من مائتين وخمسين عاماً بعد ذلك .

كيف ذلك ؟ انها معجزة التاريخ ، او ان شئت ملهاته التي لا تجد تفسيراً ، وليس هنا مجال ذكر تاريخ هذه المملكة العظيمة التي كان سقوطها في أيد الاسبان عام ١٤٩٢ م نهاية لحكم المسلمين في الاندلس ، وحدا لصراع رهيب دار على مدار ثمانية قرون من الزمان .

وكأنما اراد التاريخ ام يكافئ غرناطة على هذا الدور البطولي الرائع ، فأهداها الخلود الدائم ، واحتفظ لها بذرة من درر الآثار الاسلامية الخالدة ، وحفظ لها قصر الحمراء الذي أصبح وكأنه كعبة يحج اليها الملايين من البشر كل عام ، ليحكى لهم قصة امة بنت ودافعت وهزمت ورحلت وتركت هناك تاريخاً وشاهداً .

الحمراء تاريخاً :

يرجع قيام الحمراء الى القرن الرابع الهجرى ، حيث يشار في المصادر الى وجود قلعة هناك تسمى « قلعة الحمراء » بنيت فوق الهضبة الواقعة على ضفة نهر حدره اليسرى ، كما كانت هذه القلعة مقر أسرة بنى زيرى خلال فترة حكمهم لغرناطة .

ولما غلب محمد بن الاحمر النصرى على غرناطة ابتداء من عام ١٢٣٨ ، اتخذ مركزه في تلك القلعة ، وبدأ في تأسيس قصره بداخلها ومن ثم اصبحت هذه القلعة وهذا القصر مقراً للحكم وقاعدة لإدارة مملكة غرناطة على مدى أكثر من قرنين من الزمان .

وفى اواخر القرن السابع الهجرى ، أنشأ محمد بن الاحمر ، ثانى سلاطين غرناطة الملقب بالغالب بالله ، الحصن الجديد ، والقصر الملكى ، وأقام ابنه محمد مسجد القلعة ، وهو من الاجزاء التى ازيلت وأقيمت بدلاً منه كنيسة القديسة مريم ، ثم جاء السلطان ابو الوليد اسماعيل فزاد فى القصر وتجميله .

اما اعظم انشاءات قصر الحمراء فانها ترجع للملكين الكبيرين يوسف الاول وابنه محمد الخامس المعروف بالغنى بالله ، حيث قاما ببناء معظم الاجنحة والابهاء الملوكية التى مازالت تسبغ على قصر الحمراء وروعنها وبهائنها كما انهما هما اللذان اغدقا عل الحمراء روائع الفن والزخرف .

وتقع الحمراء فوق هضبة تشرف على غرناطة وهى غارقة وسط بحار من الاشجار تكاد تحجبها عن ابصار الفضوليين من اهل المدينة والسائحين ، ولكنها من موقعها ترتفع كثيراً عن قمم هذه الاشجار ، وتطل على المدينة من عليائها وكبرياتها .

يبلغ طول الحمراء حوالى ٣٧٢٦ متراً اما عرضها فهو مائتى متر ويحيط بها سور ضخّم مازالت منه اجزاء كبيرة حتى اليوم شاهدة على مدى عظمتها ومتانتها ويتخلل هذا السور عدة ابراج بقى معظمها الى اليوم ، ودمرت قوات نابليون عند انسحابها من هناك بعض اجزائها ، واهم ابراج السور الباقية الى اليوم : برج الحراسة او الشمعة الساهرة ، ويقع فى الطرف الغربى من الهضبة ، وبرج قمارش الواقع فوق قاعة السفراء ، وبرج التزئين ، وبرج العقائل وبرج الآكام وبرج الأسيرة وبرج الأميرات وبرج الماء ، وبرج الرؤوس الخ .

ومعظم هذه الاسماء محدثة وضعها الاسبان بعد ذلك ، ويدور حول تسميتها كثير من الروايات والاساطير التي تخلب لب الناس ويستمتع اليها السائحون بشغف شديد .

وللقصر عدة ابواب منها باب الشريعة ، وباب الآبار وباب السلاح وهناك باب يطلق عليه الاسبان اسم « باب النبيذ » .

وهناك في الطرف الغربى من الهضبة قلعة قديمة تسمى « حصن الابراج الحمراء » .

وموقع هضبة الحمراء ذو جمال نادرة ، فهي تشرف من الشمال والغرب على مدينة غرناطة ، وعلى مرجها الشهير ، وتشرف من الشرق والجنوب على جبال الثلج المعروفة باسم سيبييرا نيفادا ، وهى جبال لا يذوب عنا الجليد ابداً ، كما ان الهضبة تطل من عليها على النهر حدرة وعلى حى البيازين .

اهم اقسام الحمراء :

تكتسى الحمراء ثوباً جميلاً من النيل والكبرياء يجعلها شامخة رغم مسحة الاسى والالم التى تكسو جدرانها وروح الحزن المخيمة على ابائها ونافوراتها ، ولكنها مع ذلك اجمل الآثار الاسلامية على الاطلاق ، بل واكثرها ترغيباً وبهجة لعين الزائر وكم يعجب الانسان لرشاقة بنيانها ، وخفة روحها ، وعظمتها وكبرياتها كأنها - رغم كل عوادي الزمن - تريد ان تؤكد لكل زائر انها مقر الامجاد وموطن البطولات ، وانها قبل كل شئ وبعبه صانعة تاريخ وشاهدة تاريخ ، وأن ارضها وجدرانها

حكايات التاريخ ، وتنقسم أبنية الحمراء - اعتماداً على كتابات المؤرخ الأندلسي الكبير محمد عبد الله عنان - الى جناحين كبيرين : الاول جناح قمارش الذى يضم قاعة السفراء وبرج قمارش الذى يعلوها ، والثانى جناح الاسود الذى يتوسط فناء الاسود ، نسبة الى أثنى عشر أسداً تحمل بنافورة من الرخام الابيض ، تصفى على البهو اسمها وامحة من جمالها الخلاب .

ولنلق نظرة سريعة على اقسام الحمراء الرئيسية .

فناء الريحان :

وهو اول ما يرى الزائر وهو عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف ، تتوسطه بركة من الماء تظللها اشجار الريحان ، وقد زينت حناياه ببعض الايات القرآنية والاشعار والدعاء للسلطان ، كما انه ينتهى ببهو صغير جميل يحتوى على مصلى حليت جوانبه بنقوش بديعة .

بهو السفراء :

يعرف باسم بهو قمارش ، وهو اعظم ابنية الحمراء من حيث السعة والارتفاع وهو عبارة عن مستطيل مساحته ١٨ متراً × ١١ متراً ، وله قبة خشبية فخمة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرون متراً وقد حفرّت زخارفها على شكل النجوم ، وزخرفت الجدران على نفس الطراز .

واروع ما فى بهو قمارش زخارف قبة ونقوشها نقوش اصلية رائعة ، اما جدرانها فانها تكتسى ثوباً قشيباً من جمال الزينة والزخرفة على الرغم من ان ذلك ليس الا تجديداً لنقوشها القديمة قام به الفنانون الاسبان .

وجميع اركان المكان يعج بالآيات الشعرية ، والآيات القرآنية
ونقشت به سورة « تبارك » كاملة .

فناء الاسود :

هذا الجناح من انشاء سلطان غرناطة محمد الغنى بالله ، وهو اجمل
واشهر اقسام الحمراء ، ويعتبر بطرازه المصقول ، وقبابه المضلعة واعتمدته
الرشيقة وزخارفه البديعة ، ونافورته الفريدة التى تحملها الاسود اروع
اجنحة الحمراء واوفرها وراء وسحراً .

وفى وسط الفناء نافورة الاسود الشهيرة ، وهى عبارة عن نافورة
يحمل حوضها المرمى المستدير الضخم اثنا عشر أسداً ، صفت على شكل
دائرة ونحتت من الرخام الابيض ، وهى فى مجموعها ، رغم عوامل
الزمن ، وتأثير الرياح والامطار تعد من اجمل التحف الفنية فى قصر
الحمراء ، وكم من الاساطير حيكت وحول سباعها وانصباب الماء من
افواهها .

وبالفناء افخم مجموعة من اعمدة الرخام الابيض الرشيقة ، والنقوش
البديعة التى تأسر السائحين بمنظرها وتناسقها وجمالها .

وتطل على بهو السباع عدة قاعات تعد تحفة رائعة ، بل تكاد تكون
اكمل ما فى قصر الحمراء كمالاً وجمالاً وزخرفة ونقوشاً ، فهناك قاعة بنى
سراج وهى قاعة غطيت ارضها بالرخام المرمى ، وفوقه قبة عالية
مضلعة وفى كلا الجانبين الايمن والايسر عقد عربى بديع مزين بزخارف
عربية جميلة وفى وسط القاعة نافورة صغيرة فى ارضها بعض الصدا ،

لكن مرشدى السائحين يزعمون بأنها آثار دماء اسرة بنى سراج التى اسالها السلطان فى هذه القاعة .

أما قاعة الملوك فمدخلها عقد بديع مثلث الجوانب ، وبها ثلاثة عقود أو حنايا وفى العقد الأوسط رسمت عدة صور يقال أنها لملوك غرناطة .

وتواجه قاعة بنى سراج ، قاعة تالثة تسمى « قاعة الاختين » لوجود قطعتين من الرخام كبيرتى الحجم غريبتين ضمن مفروشات ارضها ، وتشبه هذه القاعة فى رسومها ونقوشها القاعتين الاخرتين ، وتنتهى هذه القاعة بمشرف يطل على البيازين وعلى فناء السرو يسمى منظر للندراخا .

والحمراء واسعة ، وتفصيلاتها كثيرة ، وليس القصد هنا التعريف بها لكننى فقط اود ان اشير الى ان هذه النقوش الرائعة التى تزين قصر الحمراء الان - او على الاقل فى جزء كبير منها - انما هو تجديد قام به الفنانون الاسبان فى العصور الحديثة محاولين اعادتها الى صورتها الاولى .

اهتمام الاسبان بالحمراء :

ظلت غرناطة بعد سقوطها على يد الملكين الكاثوليكيين سنة ١٤٩٢م مقراً لاقامة ملوك اسبانيا ، ومحطاً لرعايتهم مدة طويلة من الزمن ، ثم بعد ذلك دخلت فى طور من الاهمال والنسيان ، وعاشت الحمراء فى صمت رهيب ، سكنتها الهوام والخفافيش وافرخت بين جدرانها مئات الحكايات والاساطير .

وكان للكاتب الأمريكى واشنطن ايرفينج « وكتابه حكايات الحمراء » الفضل فى لفت انتظار الاسبان والعالم الى هذا الاثر الخالد ومن ثم

بدأ الاسبان فى العناية به ، وتجديده ، واصلاح ما تهدم من نقوشه وجدرانه .

اقام الاسبان مجموعة من الورش المتخصصة فى النجارة والبياض والزخرفة لكى تعمل على انتاج ما يحتاجه القصر الكبير من قطع لاصلاح ما يفسد من رسومه الاصلية ومنها :-

ورشة لصب لوحات جيرية لشعار بنى نصر ، لا غالب الا الله ، وكذلك بعض الرسوم الزخرفية والهندسية لكى يتم تركيبها فى الاماكن التى تتساقط زخارفها القديمة ورغم ان العمال لا يعرفون اللغة العربية الا انهم يؤدون اعمالهم بمهارة رائعة ويستخرجون لوحات ، تكاد تكون اصلية لدقة النقل والتصوير .

ومنها ورشة نجارة يعمل بها نجار واحد يعمل فى صناعة الابواب الخشبية بنفس الطريقة والرسم التى كانت عليها ابواب الحمراء ، ولقد شاء لى ان التقط له صورة بجوار باب جديد أفنى فيه من عمره سنوات لكى يحل بدلاً من احد ابواب القصر الاصلية ، والصورة وان لم تكن واضحة تماماً الا انها تظهر قسمات وجه الرجل الى جوار التحفة التى صنعها .

مدرسة يجب ان تبنى :

وجرى ذكر الرجل وفنه مع السنيور رامون امنجود ، سفير اسبانيا السابق فى الكويت ودول الخليج فقال لى ان هذا الرجل مدرسة يجب ان تبقى ، وواجبنا وواجب البلاد العربية ان تسعى لكى يتعلم

عليه بعض الطلاب حتى يتشربوا منه ويواصلوا رسالته لانه ربما كان احد قلة يملكون موهبة الصبر والابداع فى هذا المجال .

متحف الآثار العربية الاسبانية :

من الاخبار السارة والمفاجئة التى يحملها هذا المقال الى قرائه والى غيرهم من العرب قيام اسبانيا ببناء متحف الآثار العربية الاسبانية فى مدينة غرناطة بجوار الحمراء ولعله ، أن افتتح يكامله بعد اكبر متحف للفن الاسلامى فى العالم كله ولم يفتح رسمياً حتى الان ، لانه لم يستكمل منشآته واجهزة الامن به .

ولقد شاء حظى ان ازور هذا المتحف منذ عدة اعوام مع الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، استاذ التاريخ الاندلسى بجامعة الاسكندرية والاستاذ الدكتور ابراهيم شيوخ من تونس موفدين من قبل الاتحاد العام للمؤرخين العرب لكى تعين المتحف على امل انه كان يمكن افتتاحه مع افتتاح مهرجان الاندلسى الذى تقدم به الاتحاد الى الجهات الاسبانية ثم نكص على عقبيه دون اسباب معقولة مسبباً بذلك حرجاً شديداً لكل عربى ظ قد يعرف القصة على حقيقتها .

ويومها التقينا بمدير الحمراء والمتحف والسنير انطونيو دى لا بويرتا الذى صحبنا فى جولة فى ربوع هذا المتحف الرائع الذى سيكون ولاشك اكبر متحف اسلامى فى العالم - على الاقل من ناحية الحجم .

مفاجآت :

عنونت مقالى بالحمراء تغير جلدها ، لم يكن ذلك عنواناً بقدر ما هو حقيقة تاريخية اكدتها لى تلك الرحلة المشار اليها وارتنى كم كان على حق

المستشرق الكبير « اميليو غاريقا غوميت » يوم قال ان الحمراء قد عاشت لأن يدا اسبانية رقيقة قد تعهدتها بالتجديد والعناية ، لكن لم يدر بخلدى ، ان التغيير سيكون كبيراً وخاصة فى الايام القريبة التالية .

النافورة راحلة :

ليس فى الحمراء اكثر جاذبية من بهو السباع بنافورة الخلاصة التى يحملها اثنا عشر اسداً ، ولكم تجمع السائحون حولها يستمعون الى اسطورة الاسود التى كانت تلقى الماء من فيها ساعة من النهار ، وان احد اليهود قد استأذن ملوك اسبانيا فى الحفر اسفلها لكى يتبين سرها مما تسبب فى عطشها وتوقفت الاسود عن القاء الماء فووقت معين من النهار . وهذه النافورة ذات التاريخ ، سوف ترحل من هذا المكان لأنها مهددة بالرطوبة ، ويخشى على رخامها من عوامل المناخ ، ومن ثم لا مفر من ادخالها المتحف المشار اليه وان تترك عرشها لتستقر عليه اخرى صنعها الاسبان واستعدوا لكى يحتفلوا فى القريب بتتويجها مكان النافورة الاصلية التى سوف تنزوى بسباعها داخل قاعة تتحكم فيها الات قياس الحرارة والبرودة والرطوبة الخ

ولن يقتصر الامر على النافورة والسباع ، فهناك ايضاً الابواب الاصلية تستعد لتحتل مكانها فى متحف غرناطة الحضارى ولتحتل محلها ابواب اخرى من ذات الطراز العربى التى قام بصنعها ذلك الفنان الاسبانى المغمور فى مبنى منزو داخل قصر الحمراء .

والى مقالة اخرى لنفسح المجال اكثر عن الحمراء وعن باقى آثار غرناطة .

ابن عمار الأشبيلي

مأساة إنسانية في العصر الأندلسي *

هناك أسطورة يونانية قديمة مفادها أن «إيكاروس» صنع لنفسه أجنحة من الشمع تمكن عن طريقها من الفرار من سجنه، إلا أن طموحاته دعتة إلي أن يحلق عالياً، وأن يرتفع كثيراً، حتي أنه طار بتلك الأجنحة قريباً من الشمس، فذاب الشمع، وسقط إيكاروس في البحر ميتاً.

تلك الأسطورة القديمة تشير إلي الجانب المأساوي في حياة بعض البشر ممن يطمحون إلي ما فوق قدراتهم وإمكاناتهم، أو يطمحون أعلي بعيداً حتي لقد تصل بهم هذه الطموحات إلي حد تدميرهم تماماً والسقوط بهم في هاوية لا يجدون منها مخرجاً.

تلك هي المأساة الحقيقية لابن عمار الأشبيلي أحد أعظم شعراء الأندلس علي عصر ملوك الطوائف بالأندلس والذي ولد بقرية «شنبوس» وهي قرية صغيرة من قري شلبب بغرب الأندلس علي ما يقول ابن سعيد في المغرب، وكان ذلك عام ٤٢٢ هـ في أسرة متواضعة عاملة.

ولنبدأ مع الرجل منذ كان طالباً فقيراً يذب في شوارع قرطبة حاملاً أدواته متلقياً العلم هنا وهناك، وينظم بعض أشعاره في أسواقها طمعاً في الحصول علي ما يسد رمقه ويطعم منه دابته.

* نشرت بالمجلة العربية بالملكة العربية السعودية، العدد ٢٤٢ شعبان ١٤١٧ هـ

خرج ابن عمار من مجلس تعلمه، رث الثبات، ومضى إلى السوق،
سوق قرطبة الكبير الحافل بما لذ وطاب، وابن عمار ينظر ويتحسر ثم
توقف أمام حلقة في جانب من السوق يتوسطها رجل كفيف يلقي بأشعار
سهلة جميلة تستوقف السائرين فيلقون إليه ببعض الفسات القليلة التي
يجمعها الرجل سعياً ثم مضى بها إلى خان قريب ليشبع بطنه، فقفز ابن
عمار إلى وسط الحلقة يلقي بعض أبياته عن المرأة وحيلها وألاعيبها :

تقود من السياسة ألف بغل إذا حرنت بخيط العنكبوت

ضحك الناس، وألقوا بعض النقود فجمعها ومضى ليسد نداء بطنه
الخابية.

دخل ابن عمار مخزناً لبيع الحبوب، ووقف أمام صاحبه يمدحه
ويثني عليه ثم أنشده بعض أبياته في الثناء عليه، تفحصه التاجر بعينية،
وأعجبه الأبيات فنادى علي خادمه، وأمره ببعض الكلمات، فغاب الخادم
ثم عاد يحمل غرارة من الشعير قدمها لابن عمار الذي حملها منكسر
الخاطر، حزينا، يتمني لو لم يكن قد قبلها، لكن الحاجة أجبرته علي ذلك.

هكذا انقضت السنوات الأولى من شباب ابن عمار، نمت فيها
قريحته، وظهرت فيها ألمعيته حتي أتيح له يوماً أن يدخل علي الأمير
المعتضد بن عباد، أمير أشبيلية في يوم جلس الأمير فيه وسط حاشيته
يستمع إلي شعراء يزجون له التهاني بغزواته الموفقة، فقال أحدهم :

بمعتضد بالله أشرقت الدنيا وأطلقها من ربة الجور مطلق

ورقت حواشي الدهر حتي كأنه رداء عروس بالمعبر مرقق

وقال غيره :

من مثل ابن عباد ومن مثل قومه ليوث حرب أو بدور بواسم

فلما أتى الدور علي ابن عمار، هب منشدا :

أدر الزجاجة هالانسيم قد أنبري والنجم قد صرف العنان عن السري
والصبح أهدي لنا كافوره لما استبرد الليل منه العنبر
ملك إذا ازدحم الملوك بمورد ونحاه لا يردون حتي يصدرا
ملك يروك خلقه أو خلقه كالروض يحسن منظراً أو مخبراً

كانت هذه القصيدة فاتحة الخير علي ابن عمار، فإلى جانب ما نفحه إياه الأمير المعتضد فقد تعلقت بالشاعر أهداب قلب الأمير ولي العهد الذي أعجب إعجاباً بالقصيدة ورأى في شاعرها الشاب خليلاً وصديقاً يميل قلبه إليه .

تغيرت حياة الشاعر البسيطة منذ تلك اللحظات، فتحول إلي صديق مقرب جداً من الأمير المعتمد بن المعتضد بن عباد، والذي عرف في التاريخ بالمعتمد بن عباد .

فليس أجمل الثياب، وسكن القصور، وتمدد فوق رائع الفراش، وسجل في ديوان الشعراء، وأصبح صديقاً قريباً من الأمير الشاب لا يفارقه في ليل أو نهار يسمران معاً، ويتبادلان الأشعار حتي غدت صداقتهما مضرب الأمثال، وصارا يركبان معاً ويتجولان سامران في شوارع أشبيلية، حين طرقيهما ذات ليلة صوت المؤذن فقال المعتمد : هذا المؤذن قد بدا بأذانه .

فرد ابن عمار : يرجو بذالك العفو من رحمانه

فقال المعتمد : طويبي له من شاهد بحقيقة

فأكمل ابن عمار : إن كان عقد ضميره كلسانه

وكان الأمير المعتمد يحيه حتي كان لا يطيق بعده عنه، وكتب إليه

مرة :

لما تأيت الكري عن ناظري وودته لما انصرفت عليه

طلب البشير بشارة يجزي بها فوهبت قلبي، واعتذرت إليه

بعد وفاة المعتضد، أصبح ابنه المعتمد ملكاً علي أشبيلية، وارتقي ابن
عمار إلي درجة الوزارة، بل أصبح أول الوزراء، المتحكم في أمور الدولة،
المتصرف في كل الأمور حتي غدا وكأنه الحاكم الحقيقي لأشبيلية،
وأصبح قائداً لجيوش أشبيلية، وسفيراً عن ملكها إلي ملوك الساري في
شمال الأندلس، وإلي أقرانه من ملوك الطوائف، وأصبح ابن عمار ممن
يشار إليه بالبنان، بل ويسعي الناس حتي مجرد لمس الركاب، وأطنب
الكتاب في ذكره مسامراته مع الوزراء، ولياليهم الغناء، ويكفي مثالا عن
ذلك ما أورده كتاب «نفح الطيب» حيث يقول :

خرج الوزير أبو بكر بن عمار، والوزير أبو الوليد بن زيدون، ومعهما
الوزير ابن خلدون من أشبيلية إلي منطرة لابن عباد بموضع يقال له
«الفونت» تحف به مروج مشرقة الأنوار، منقسمة الأنجاد والأغوار،
متبسمة عن ثغور النوار، في زمان ربيع سقت الأرض السحب فيه
بوسميها ووليها، وجلتها في زاهر ملبسها وحليها، ومجامر الزهر تعطر

أردية النسائم عند هباتها، وقد نورا الانفراد للهو والطرب، والتنزه في
روضي النبات والأدب وبعثوا صاحباً لهم يسمي خليفة ليأتيهم بنبيذ
يذهبون الهم بذهبه في لجين زجاجة ...

لم يرع ابن عمار لخالقه تلك النعمة التي أسبغها عليه، ولم يشكر
لربه ما أفاء عليه من سلطان، فمضي يعب من ملذات الحياة، وينهل من
مواردها، فلم يراعى حرمة ولم يخشى ملامة، حتي قال :

هضرت في الآمال طيبة الجنى وسوغتني الأحوال مقبلة الدنى
كما ذكر لياليه وسهرها في الرياض فقال :

يسا ليلة بتنا بها في ظل أكناف النسيم
من فوق أكناف الريا ض وتحت أذيال النسيم

أكثر ابن عمار في التشبيب بالغلمان، وذكر المقرري كثيراً من تعلقه
بالشباب ومجونه في التشبيب بالذكر، كما قال عنه الحجازي : وإكثار ابن
عمار في المعذرين وإحسانه منهم، يدلّك علي أنه كما قيل عنه : كان
مشغوقاً بالكأس والاستلقاء من غير نعاس . كما تكثر كتب التاريخ من
الحديث عن كيفية تمتع ابن عمار بالملذات الدنيوية، وطموحاته العالية
جداً، فإنها تكثر التعجب من المكانة التي ارتقي إليها ابن عمار؛ من
«صلوك إلي وزير» ومن تشبيهه قوله :

قمرأت كتابك مستشفعا بوجه أبي الحسن من رده
ومن قبل فض ختام الكتاب قرأت الشفاعة في وجهه

وقوله :

حجت اليه العيون

غزا القلوب غزال

وأخر الحسن نون

قد حظ في الحسن نورا

بغى ابن عمار كثيراً، وتكبر على أهل قرطبة، وأشبيلية، واستخدم القوة في جمع المال، وتشدد في تحصيل الضرائب، ولم يسلم من أذاه الأثرياء أو الفقراء بل شمل أذاه رجال العلم والفقهاء. واستعرض قوته يوماً فذهب في موكبه إلي التاجر الذي سبق أن منحه مخلاة من الشعر، وأعطاه مخلاة من الفضة، وقال له : لو أنك أعطيتني ذلك اليوم براً لأعطيتك ذهباً.

تعتزف مصادرنا التاريخية والأدبية علي السواء بأن الله قد منح ابن عمار ملكة شعرية عالية، جاءت أشعاره سهلة الكلمات، عذبة الألفاظ حتي اعتبره الأمير ابن عباد، وهو أيضاً شاعر عظيم، بأنه شاعر العصر ولا مرأ، وأوصلته تلك الملكة الشعرية إلي أقصى ما يطمح إليه إنسان.

أعجب ان عباد يا من عمار اعجابا كبيرا، واستخلصه لنفسه حتي غدا لصيقاً به.

لم يعرف التاريخ ملكاً ارتبط بوزيرة يمثل ما ارتبط ابن عباد بابن عمار، فقد وجدت بينهما أريحية الأدب، وصبرتهما محبة الشعر حتي كأنهما رجل واحد وأخلص ابن عباد - ملك أشبيلية - لصدقه إخلاصاً ندر أن تتكلم كتب التاريخ عن مثيل أو شبيه له، كم أن لدينا روايات مؤثرة عن الوفاء من جانب ابن عباد كان أكبر منه عند ابن عمار، حتي أنه

فضله في كثير من المواقف علي زوجته وولده، وكم كان يقول له إن
سروري في الحياة أن أراك مسروراً.

ومما يدل علي عمق الصلة بين المعتمد، وابن عمار، أنه أدخلت الي
المعتمد يوماً ما باكورة نرجس، فكتب الي ابن عمار يستدعيه قائلاً :

قد زارنا النرجس الذكي	وأذن من يومنا العشي
ونحن في مجلس أتيق	وقد ظمئنا وفيه ري
ولي خليل غدا سمي	باليته ساعد السمي

فأجابه ابن عمار :

ليبك لبيك من مناد
له الندي الرحب والندي
ها أنا بالباب عبد قن
قبلته وجهك السني
شرفه والده باسم
شرفته أنت والنسبي

لكن لم يقنع ابن عمار بتلك المكانة، ولم تكفه القيادة ولا السفارة ولا
الوزارة بل طمح إلي أن يكون ملكاً له مملكته التي يحكمها هو، وفي أن
يكون له وزراء وقادة، وأن يرسل نيابة عنه السفراء؛ لقد كانت طموحاته
منفتحة لا عقال لها.

وجاءت الفرصة لابن عمار حين أغري ملكه بتجريد حملة الاستيلاء علي مدينة مرسية في حدود سنة ٤٧١ هـ، ولكي ينجح في حملتهن عقد اتفاقاً مع الكونت رامون برنجار، كونت برشلونة لكي يعاونه بفرسانه علي فتح المدينة، ودفع له عشرة آلاف مثقال من الذهب، كما تحالف مع قائد حصن بلج، وهو عبيد الرحمن بن رشيق، وتجهز هذا التحالف عن طريق الخيانة، والإغراء بالمال، واستخدام القوة، أن يدخل مدينة مرسية، ويأسر أميرها ابن طاهر، وأصبح ابن عمار حاكم المدينة من قبل ابن عباد.

كانت الفرصة سانحة أمام ابن عمار ليحقق ما كان يظنه أقصى طموحاته، فبدأ يستقل بحكم المدينة النائية بعيداً عن سلطان ملكه، وعمد إلي حكم المدينة كأmir مستقل تماماً، وتجاهل أوامر ابن عباد، ورغباته، وأخذ يظهر أمام حكام المناطق المجاورة منفرداً برأيه، وتعالى وتكبر حتي علي ولي نعمته وأميره المعتمد بن عباد، بل وصل به الأمر إلي نظم القصائد في هجائه وهجاء زوجته الأميرة اعتماد الرميكية، وقال قصيدته اللامية الشهيرة في المعتمد والرميكية، ومنها :

ألا حي بالغرب حيا حلالا أناقوا جمالا وحازوا جمالا
وعرج بيومين، أم القري وتم فحسى أن تراها خيالا
وسب الرميكية فقال :

تخبرتها من بنات الهجان رميكية ما نساوي عقالا
فجاءت بكل قصير العذار لنيم النجارين عما وخالا

وسخر من الملك الأشبيلي فقال :

أتذكر أيامنا بالصبا	وأنت إذا لحت كنت هلالا
أعانق منك القضيبي الرطيب	وأرشف من فيك ماء زلالا
وأفنع منك بدون الحرام	فنقسم جهدك أن لا حلالا
سأهتك عرضك شيئا فشيئا	وأكشف سترك حالا فحالا
فيا عامر الخيل ويا زيدها	منعت القرى وأبحت العيالا

أنشد ابن عمار تلك الأبيات أمام رجاله وحشايته، جالسا في قصر الإمارة في مرسية، مرتديا أفخم الثياب، متباهيا، فأستغل أحد حاضريه من اليهود حالته النفسية وطالبه بنسخة من القصيدة، وسرعان ما أرسلت إلي ابن عباد في أشبيلية.

كانت أخبار ابن عمار تدمي قلب ابن عباد، وغاص خنجر طعنة الخيانة بين حنايا صدره، وتألّم تألما حقيقيا حتي يقال إنه كان يهتف :

أيها الملعون، إنك لم تخن الأمير فحسب، إنك خنت الصديق والخل الوفي، وكظم غيظه علي ألم دفين لم ينفث عنه إلا في قصيدة هجاء ضد ابن عمار أوردها الفتح ابن خاقان في كتابه فلاند العقيان، ومطلعها :

كيف التفتت بالخديعة من يدي رجل الحقيقة من بني عمار

كانت الإهانة والخديعة قاسيتين علي الملك الأشبيلي، فدبر في هدوء مع ابن رشيق كيفية استرداد المدينة، وبالفعل ظل ابن رشيق يتريص بابن عمار، وانتهاز فرصة خروجه من المدينة لتفقد بعض الحصون الخارجية،

فوثب عليه، وساعده بعض سكان المدينة، وتمكن من السيطرة علي حصنها، وأغلق أبوابها في وجه ابن عمار، الذي أوصدت الأبواب في وجهه، فاتهم أهلها بالخيانة، وردوا عليه أن ذلك جزاء من جنس عمله، ولم يجد الرجل أمامه فرصة إلا الإسراع بالفرار وهو يتوعد ويتهدد، ولم يرحب به أحد من ملوك الطوائف فأضطر إلي اللجوء إلي الملك القشتالي القونيسو السادس الذي رفض أن يقدم له أي عون، بل لم يرحب به كثيراً في بلاطه.

هام ابن عمار علي وجهه حتي لجأ إلي سرقسطة في شمال الأندلس وقدم نفسه للعمل في خدمة حاكمها المقتدر بن هود وابنه المؤمن، وقبل إبعاله علي مضض ولكن لم يكن مرحباً به بين رجال البلاط في مدينة سرقسطة.

حاول ابن عمار أن يكسب ثقة حكام سرقسطة وعرض عليهم أن يعهدوا إليه بقيادة حملة لفتح حصن منيع قريب من أعمال دانية يسمي حصن شقورة، ويحكمه في ذلك الوقت ابن مبارك ؛ ربما رأى السرقسطيون في ذلك فرصة للخلاص من ابن عمار، فيما أن ينتصر فيضيف إلي أعمالهم بلداً يودون الاستيلاء عليه، وإن سقط استراحوا منه، فأمدوه بالقليل من الرجال المسلمين والنصارى، ولم يهتم ابن عمار بالعدد لأنه كان ينوي استخدام الحيلة في الاستيلاء علي الحصن المذكور.

كان قائد الحصن رجلاً محنكاً لم يغتر بالكلمات المعسولة التي قدمها ابن عمار مبرراً بها زيارته للحصن في القليل من رجاله، وأدرك أن وراءه ما وراءه، وسرعان ما أدرك أن هناك خطة ما فأخذ حذره، وبالفعل ما

الإشاعة بسرعة جداً ونقلها أبو بكر بن زيدون إلي ابن عباد بصورة
أضرمت السخط في نفس المعتمد الذي نهض غاضباً، وأندفع إلي حائط
بقصره فانزع منه طبرزين حاد سبق أن أهداه له الملك الفونسو السادس،
واندفع ابن عباد إلي سجن ابن عمار الذي فزع فزعاً شديداً عنه رؤيته،
وارتمي علي قدميه يقبلها استعطافاً لكن كلما زاد في استعطافه ازداد حنق
المعتمد الذي هوى بطبرزينه علي رأس ابن عمار، وظل يضربه بها ولم
يتركه إلا جثة هامدة تخرجها الدماء، وكان مصرع ابن عمار علي هذا
النحو المؤسي في أواخر سنة ٧٧ هـ وهكذا قتل ابن عباد بيده وزيره
الشاعر المبرز، ورفيق صباه، بعد أن خلق عالياً حتي أحرقت الشمس
جناحيه.

الأندلسيات

الفهرست

- ١- مكانة الأندلس العلمية في العالم الإسلامي . ٢٥ - ١١
- ٢- القرينة الإسلامية في الأندلس . ٥٩ - ٢٧
- ٣- قرطبة الإسلامية وآثارها الباقية . ٨١ - ٦١
- ٤- الحكم المستنصر بالله . ٩٠ - ٨٢
- ٥- حمراء غرناطة وتطورها . ١٠٥ - ٩١
- ٦- ابن عمار الأشبيلي مأساة إنسانية . ١١٨ - ١٠٦

